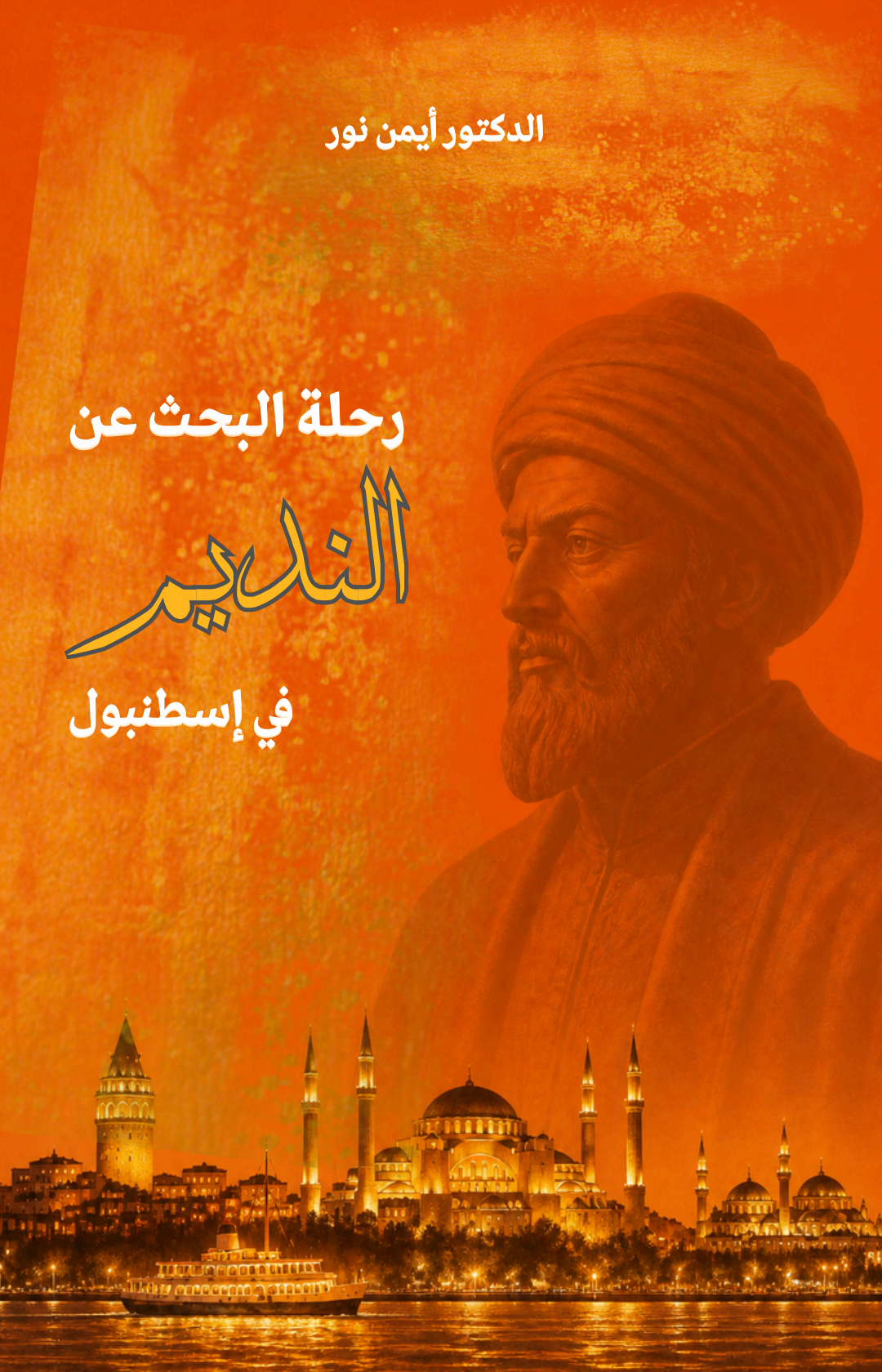
الدكتور أيمن نور

رحلة البحث عن النديم في إسطنبول



رحلة البحث عن

النديم

في إسطنبول

رحلة البحث عن النديم في إسطنبول

من النيل إلى البوسفور

الدكتور أيمن نور

تاسك للنشر
2026

TASQ

+213 784 02 93 44 contact@tasqpublishing.com tasqpublishing.com

حقوق النشر © TASQ 2026
جميع الحقوق محفوظة

ردمك (ISBN)	978-1-291-46771-0
عنوان الكتاب	رحلة البحث عن النديم في إسطنبول
تأليف	د أيمن نور
الطبعة	الأولى
سنة النشر	2026
مكان النشر	الولايات المتحدة

الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف وحده، ولا تعكس بالضرورة رأي الناشر.
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في أي نظام لاسترجاع المعلومات أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة سواء إلكترونية أو ميكانيكية أو عبر التصوير الضوئي أو أي طريقة أخرى، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إهداء

إلى رشا، بنت خالتي التي رحلت في ربيع العمر، بعد أن علّمتني أن الغياب لا يهزم المحبة؛

...إلى كل منفيّ يحمل وطنه في قلبه؛

...وإلى النديم الذي لم ينتهِ حضوره

(أيمن)

مُقَدِّمَة

لم أذهب إلى مقبرة يحيى أفندي لأكتب كتابًا. ذهبت أبحث عن حجر.

كنت أتصور أن الرحلة تبدأ عند بوابة مقبرة، وتنتهي أمام شاهد يحمل اسم عبد الله النديم؛ أقرأ عليه ما تيسر من دعاء، وأعيد إلى ذاكرة رجل منسي شيئًا من حقه، ثم أعود. لكن ما حسبته زيارة قصيرة اتسع حتى صار سنوات من السؤال، وعشرين حلقة من البحث، وأوراقًا كثيرة تتنقل بين الإسكندرية والقاهرة ويافا والآستانة، كما لو أنها ترفض أن تستقر في مكان قبل أن نسمع بقية الحكاية.

ثمة رجال يظل وطنهم يذكر أسماءهم، لكنه يكف عن تذكر ما فعل بهم. والنديم واحد من أولئك الذين عادوا إلى الكتب أسرع مما عادوا إلى قلوب الأجيال. نعرف أنه خطيب الثورة العرابية، وصاحب الصحف التي سخرت من الاستبداد، ونعرف أنه طورد واختفى ونُفي، ومات في إسطنبول عام ألف وثمانمائة وستة وتسعين.

لكن المعرفة المختصرة قد تصبح طريقة مهذبة للنسيان: نكرر أسماء الوقائع، ثم نمضي، دون أن نسأل ماذا بقي من الإنسان بين سطورها.

ما شدني في النديم، أول الأمر، ليس كثرة ما نعرفه عنه، بل ما لم نعد نعرفه. كيف يعرف التاريخ اسم المقبرة، ولا نعرف نحن أين يقع قبره داخلها؟ كيف تحفظ الكتب أخبار جنازته، بينما يغيب عنا شاهدها؟ وكيف يمتلك رجل كل هذا الحضور في صفحات الصحافة والخطابة، ثم تتفرق أوراقه حتى نبحث عن نماذج من خط يده كما نبحث عن رسالة عائلية خرجت من صندوق قديم؟

ولم تكن هذه الأسئلة تاريخية خالصة. لقد دخلتُها حاملًا شيئًا من سيرتي. أنا أيضًا ابن الإسكندرية، وأعرف طعم المنفى ومفارقة أن تجد في مدينة غريبة من الحرية والأمان ما تشكرها عليه، ثم تظل عاجزًا عن أن تستبدل به هواء بيتك الأول. أعرف كيف تصبح الصحيفة والميكروفون نافذتين إلى وطن لا تستطيع الوصول إليه بقدميك، وكيف يصبح القرب من قبر الأم حلمًا يعجز عنه

من أبعدته الحياة عن أرض مولده. لذلك لم تكن علاقتي بالنديم خالية من الذات؛ ولم أرد لها، في الوقت نفسه، أن تتحول إلى مرآة لا أرى فيها إلا نفسي.

لهذا حرصت، طوال الرحلة، على الفصل بين ما رأيته بعيني، وما روته المصادر، وما أتمناه. ظننت ذات يوم أنني وقفت أمام شاهد يحمل اسم النديم، ثم اتضح أن الاسم توقيع خطاط عثماني. كان الاعتراف بالخطأ أصعب على القلب من فرحة الاكتشاف الأولى، لكنه كان أنفع للبحث. تعلّمت أن الشوق لا يقرأ النقوش قراءة صحيحة دائمًا، وأن أكثر ما ندين به لراحل نحبّه ألا نضيف إلى غيابه قصة جميلة لا دليل عليها.

ومن هنا خرجنا من المقبرة إلى الوثيقة: إلى خبر وفاته في الصحافة العثمانية، وإلى روايات الجنازة، وإلى شهادات أحمد تيمور وجرجي زيدان، وإلى مراسلات باحثين أتراك يعرفون شواهد يحيى أفندي وخطوطها، وإلى صورتين نشرهما خير الدين الزركلي لنموذجين من رسالتين إلى الشيخ علي الليثي. وكل أثر منها أضاء موضعًا، وترك مواضع

أخرى في العتمة. وفي البحث التاريخي ليست العتمة عارًا؛ العار أن نسميها نورًا لكي ننتهي سريعًا.

أردت في هذا الكتاب أن أرى النديم بعيدًا عن الحكاية ذات اللون الواحد. كان ثائرًا ومصلحًا، وصحفيًا ساخرًا، وأديبًا رقيقًا أحيانًا ولاذعًا أحيانًا أخرى. وكان إنسانًا عاش اختيارات معقدة، لا يفسرها التمجيد المطلق ولا الإدانة السهلة. لم أكتب لكي أستبدل قبرًا مجهولًا بتمثال من الكلمات. كتبت لكي أفتح الباب أمام رجل من لحم ودم، لا أمام رمز نمنعه من الخطأ بحجة الحب.

هذه الصفحات ليست سيرة شاملة لكل ما فعله عبد الله النديم، ولا إعلانًا بأن لغز قبره قد حُل. إنها يوميات بحث وأوراق ذاكرة، تتجاور فيها الشهادة الشخصية مع المراجعة التاريخية، ويتجاور فيها الحزن على ما ضاع مع الأمل فيما يمكن العثور عليه. بعض الحلقات كُتب عند الأحجار، وبعضها عند الكتب والصحف والمراسلات، وبعضها عند حدود نفسي. ولم أشأ أن أخفي ذلك التداخل؛ فالرحلة من النيل إلى البوسفور كانت، منذ أول

يـوم، رحلـة فـي المـكان وفـي العمـر معًـا.

أكتـب لمـن سـيأتي بعدنـا أيضًـا. لمـن سـيعرف مـن الأرشـيف مـا لـم نعرفـه نحـن، أو يسـتطيع قـراءة نقـش لـم نسـتطع قراءتـه، أو يجـد أصـل رسـالة ظنناهـا ضاعـت. ليـس المطلـوب أن يتبنـى مـا انتهيـت إليه؛ بل أن يبـدأ مـن الموضـع الـذي توقـف عنـده بحثـي، وأن يصححنـي إن ظهـر دليـل أصـح. فالحقيقـة لا يضرهـا أن تتغيـر أمـام وثيقـة، وإنمـا يضرهـا أن نسـجنها داخـل اعتقـاد نحبـه.

ولعلنـي، حيـن بـدأت، تمنيـت أن أصـل إلـى قبـره. أمـا الآن فقـد اتسـعت الأمنيـة: أن نصـل إلـى أوراقـه أيضًـا، وإلـى صوتـه الـذي لـم يُسـمع كاملًا، وإلـى وطـن يعـرف كيـف ينصـف مـن اختلـف معهـم قبـل أن يندبهـم بعـد الغيـاب.

هـذا الكتـاب ليـس شـهادة بأننـي وجـدت عبـد الله النديـم. إنـه شـهادة بأننـي لـم أقبـل أن أتوقـف عـن البحـث عنـه.

(1) وجوه لا تغيب... زعيم المنفيين...

الأستاذ، مات قبل أن تصل أسرته!

صباح إسطنبول، كان يمشي على أطراف أصابعه، كأنه يخشى أن يوقظ أحدًا من النائمين تحت ترابها. عبرت وحدي الطريق الصاعد إلى مقبرة «يحيى أفندي» في منطقة بشكتاش، كانت الأشجار العتيقة تنثر أوراقها الصفراء كعادتها في خريف أكتوبر، صعدت على ممر حجري في هدوء، فيما كان البوسفور، البعيد بخطواتٍ قليلة، يلمع تحت شمس خجولة، كأنه يعرف أن في هذا المكان رجلًا لم يغادره الحنين إلى النيل يومًا.

توقفت أمام شاهد قبر بسيط... بسيط إلى حد للأسف والدهشة. لا شيء فيه يوحي بأن تحته يرقد رجلٌ كانت كلماته، قبل أكثر من قرن، تهز الشوارع، وتوقظ الضمائر، وتربك دولًا وممالك كاملة.

مددت يدي إلى الحجر البارد، ولم أشعر أنني ألمس رخامًا... بل شعرت أنني أصافح زمنًا كاملًا من الوجع.

كانت تلك زيارتي الأولى إليه في يوم 11 من أكتوبر، قبل عشرة أعوام، في الذكرى المئة والعشرين لرحيله، التي احتفلت بها معه، وحدي، التقطت يومها صورةً إلى جوار قبره، ثم غادرت المكان، لكن شيئًا مني بقي هناك.

ومنذ ذلك اليوم، كلما مررت بالقرب من هذه المنطقة التي توجد بها المقبرة، يراودني إحساس غريب بأن هذا الرجل لم ينتهِ بعد، وأن بعض البشر لا تدفنهم الأرض، بل تحفظهم في انتظار من يعيد حقهم في الذاكرة.

وبعد شهر، سأعود إلى الموضع نفسه، لكن بعد 10 سنوات، في الذكرى المئة والثلاثين لرحيل عبد الله النديم، لكني لن أكون وحدي، بل ضمن فعاليات جمعية الشرق للثقافة والحضارة، وقناة الشرق. سنعود لا لنحيي ذكرى وفاة رجل، بل لنصافح روحًا مصرية، دفعت ثمن الكلمة، وعاشت للحرية، ثم رحلت بعيدًا عن كل من أحبت.

وأنا أقف منذ عقد، أمام قبره، لم يخطر ببالي أولًا أنه كان خطيب الثورة العرابية، ولا أحد رواد

الصحافة الوطنية، ولا الأديب الذي صنع مدرسةً كاملة في الكتابة الساخرة، ولا الرجل الذي كان الاحتلال يخشاه أكثر مما يخشى كثيرًا من حملة البنادق.

الذي شغلني يومها كان سؤالًا واحدًا...

كيف استطاع أن يحتمل كل هذا؟

كيف عاش سنواته الأخيرة، وهو يعلم أن أسرته بعيدة، وأصدقاءه بعيدون، لا يملكون شجاعة ذكر اسمه، وتلاميذه الذين ملأوا الساحات بصوته لم يعودوا قادرين حتى على السؤال عنه، أو الإمساك بيده وهو يصارع المرض والموت؟

أدركت، في تلك اللحظة، منذ 10 سنوات أن أقسى ما في الاقتلاع من الجذور ليس فراق المكان... بل فراق الوجوه. فالوطن ليس ترابًا وحدودًا ونهرًا وعلمًا.

الوطن هو من يعرف ملامح تعبك قبل أن تنطق بها.

وأخ أو ابن يطمئنك، بمجرد أن يطرق بابك أو يجلس إلى جوارك ويحدثك.

وصديقٌ يزورك بلا موعد أو يلتقيك صدفة. وتلاميذ وأنصار يؤمنون أن معلمهم سيظل واقفًا بينهم إلى الأبد.

كل ذلك حرم منه عبد الله النديم، وهو يقترب من نهاية الرحلة المبكرة وهو في سن 54 عامًا.

لم يكن مرض السل وحده ينهش صدره... كان صمت الأحبة يفعل.

وكان الانتظار يفعل.

وكان الشوق الذي لا يجد طريقًا إلى أصحابه يفعل أكثر.

هناك رجالٌ يموتون لأن أجسادهم تعبت...

وهناك رجالٌ تتعب أرواحهم قبل أجسادهم.

وأحسب أن عبد الله النديم كان من هؤلاء. فلم يكسره المرض بقدر ما كسرته الوحدة. ولم تهزمه الغربة لأنها أبعدته عن مصر فحسب، بل لأنها أبعدته عن أسرته، وعن كل الوجوه التي كان يرى فيها مصر.

ولعل ما أبكاني، وأنا أقرأ سيرته، أنه لم يطلب في أيامه الأخيرة جاهًا ضائعًا، ولا منصبًا، ولا انتقامًا ممن ظلموه.

كل ما تمناه...

أن يرى أسرته.

أن يرى من أحبهم.

أن يطمئن قلبه، ولو للحظة، بأن شيئًا من وطنه قد وصل إليه.

يا لها من أمنية متواضعة...

ويا لها من أمنية استعصت حتى على رجلٍ عاش عمره كله يمنح الناس الأمل.

لم يكن النديم قديسًا، ولم يكن أسطورة من صنع الخيال الشعبي. كان إنسانًا.

ولهذا أحبه الناس.

ولهذا خافت منه السلطة.

ولهذا بقي، بعد مئةٍ وثلاثين عامًا، أقرب إلينا من كثيرين عاشوا بعده.

وربما لهذا أيضًا، لم أشعر وأنا أقف أمام قبره أنني أقف أمام رجلٍ من القرن التاسع عشر. بل شعرت أنني أقف أمام صفحة من حكاية لم تنتهِ بعد...

حكاية كل من دفع ثمن رأيه.

وكل من اقتُلع من أرضه لأنه أحبها أكثر مما ينبغي.

وكل من حمل وطنه في قلبه، حتى أصبح القلب وطنه الأخير.

لم يبدأ عبد الله النديم حياته بطلًا في كتب التاريخ، ولم يولد وفي يده قلم من ذهب، ولا على كتفيه نجوم أو نياشين. خرج من قلب الناس، فبقي واحدًا منهم حتى آخر يوم في حياته. وربما كانت هذه هي أولى عبقرياته... أنه لم يتعال على الشعب يومًا، لأنه كان جزءًا منه.

كان يعرف الأسواق أكثر مما يعرف القصور، ويجيد الإنصات إلى أحاديث البسطاء أكثر مما يجيد مجاملة أصحاب النفوذ.

لذلك لم تكن كلماته تبدو وكأنها تُلقى على الناس، بل كانت تخرج من بينهم، تحمل لهجتهم، وتفهم أحلامهم، وتعرف مواطن وجعهم.

وإذا كانت الأمم تُعرف أحيانًا بقادتها، فإن الأزمنة تُعرف بأصواتها. وكان عبد الله النديم، دون مبالغة، أحد أعظم الأصوات التي أنجبتها مصر في القرن التاسع عشر.

قرأت بعضًا من مقالاته وخطبه

كان خطيبًا لا يقنعك فقط... بل يجعلك ترى الفكرة رأي العين. وكانت عباراته تمتلك حرارة الحياة نفسها، صورًا، وحكايات، وضحكات، ودموعًا، حتى يخيل إلى السامع أنه لا يستمع إلى خطيب، بل يعيش معه ما يقول.

أما قلمه، فقد سبق عصره. لم يكن يكتب للنخبة وحدها، بل كتب للمجتمع كله. جعل من الصحافة مدرسة للتنوير، ومن المقال قضية، ومن السخرية الراقية وسيلة لمقاومة الاستبداد، لا للتشهير بالناس.

وكانت مجلته «الأستاذ» صفحةً مشرعة على مستقبل الصحافة العربية، لا مجرد مطبوعةٍ تصدر ثم تُنسى.

ولم يكن الاحتلال البريطاني يخشاه لأنه يحمل سلاحًا، وإنما لأنه كان يحمل شعبًا كاملًا في كلماته صوتًا للأمة المصرية في صوته.

فالسلطة تستطيع أن تصادر صحيفة، لكنها تعجز عن مصادرة فكرة إذا استقرت في قلوب الناس.

ثم جاءت العاصفة...

وسقطت الثورة العرابية.

وتبدلت حياة الرجل كلها.

لم يعد الخطيب الذي تلتف حوله الجماهير... بل أصبح المطارد الذي يخشى أن يلتفت أو يتعرف على وجهه عابر سبيل.

عاش سنواتٍ طويلة متنقلًا بين البيوت، والقرى، يغير اسمه، ويبدل هيئته، ويختبئ، حتى أصبح الاختباء أسلوب حياة. لم يكن يخاف على نفسه بقدر ما كان يخاف أن تنطفئ الكلمة التي عاش

من أجلها أو يضار بسببه من تستروا عليه. حتى تمت الوشاية به أثناء وجوده في قرية «ميت الغرقا» مركز طلخا (بلدة توفيق عكاشة).

ثم جاء القرار الذي يعرف المنفيون جميعًا طعمه المر...

أن يغادر خارج مصر.

وما أقسى أن يقال لإنسانٍ أحب وطنه حتى أفنى عمره في خدمته:

ليس لك مكان فيه!

خرج عبد الله النديم من مصر، لكن مصر لم تخرج منه. كانت تسافر معه من الشام إلى الآستانة. كانت مصر في حقيبته. في أوراقه. في صلاته.

في أحلامه.

وفي تلك اللحظات، كان يظن، بين النوم واليقظة، أنه ما زال يسمع ضجيج القاهرة، أو يشم رائحة النيل في البوسفور، أو يرى وجوه البسطاء الذين أحبهم.

ولهـذا يمكـن أن نقـول، دون أن نجافـي الحقيقـة، إن عبـد الله النديـم أمضـى نحـو خمسـة عشـر عامًـا مـن عمـره الأخيـر بيـن الاختفـاء والاقـتلاع مـن وطنـه. خمسـة عشـر عامًـا لـم يعـرف فيهـا الاسـتقرار ليلـةً، وظـل خلالهـا مطـاردًا أو مبعـدًا، حتـى انتهـت رحلتـه بعيـدًا عـن الأرض التـي أحبهـا أكثـر مـن نفسـه.

لـم تكـن تلـك السـنوات خمسـة عشـر رقمًـا فـي سـجل... كانـت خمسـة عشـر خريفًـا مـرّ علـى قلبـه.

وخمسـة عشـر رمضـان، افتقـد فيـه دفء أسـرته وأمـه ولمـة الإفطـار.

وخمسـة عشـر عيـدًا لـم يسـمع فيـه ضحكـة أخ، ولا دعـاء أم، ولا مصافحـة صديـق قديـم.

وكان كل عـام يمضـي، يزيـد المسـافة بينـه وبيـن الوطـن، ويزيـد الوطـن حضـورًا فـي قلبـه.

حيـن اشـتد عليـه المـرض فـي إسـطنبول، لـم يكـن الجسـد وحـده هـو الـذي أنهكـه. كانـت روحـه قـد تعبـت مـن طـول الانتظـار. لـم يطلـب أن يُعـاد إليـه منصـب، ولا أن يُـرد إليـه مجـد.

طلب شيئًا واحدًا...

أن تأتي أسرته.

أن يرى أمه.

أن يرى أخاه.

كان يريد أن يطمئن، قبل أن يغادر الدنيا، أن شيئًا من مصر قد وصل إليه.

نعم... وافقت السلطات المصرية...

وانطلقت الأسرة في رحلتها الطويلة عبر البحر. لكن الزمن كان قد سبقها.

وصل الأحبة... متأخرين...

فصاحب الموعد، كان قد رحل.

وقادهم إلى قبره رجلٌ يعرف هو الآخر معنى المنفى. هو جمال الدين الأفغاني.

أتوقف طويلًا أمام هذا المشهد.

لا أقرأه كسياسي... بل كإنسان.

وأتساءل:

كم من الأحلام ماتت قبل أصحابها؟

وكم من اللقاءات تأخرت دقائق... فصارت مستحيلة إلى الأبد؟

ربما لهذا، حين أقف أمام قبر عبد الله النديم، لا أشعر أنني أزور رجلًا من الماضي.

أشعر أنني أزور ذاكرة حية، تذكرنا بأن الكلمة الصادقة قد تُطارد، وقد تُنفى، وقد يموت صاحبها بعيدًا عن وطنه...

لكنها لا تموت معه.

وبعد أيام، سأقف مرةً أخرى أمام قبره، في الذكرى المئة والثلاثين لرحيله.

وسأتذكر أن الزمن يمضي...

لكن الوفاء يبقى.

وأتمنى أن تتحول هذه الذكرى إلى مناسبةٍ يستعيد فيها المصريون واحدًا من أنبل أبنائهم.

فمن لم يستطع أن يزور قبره في إسطنبول، فليزره بقلبه.

ليقرأ له صفحة.

أو يبحث عن أحد كتبه.

أو يروي لأبنائه حكايته.

أو يكتب عنه سطرًا.

أو يترحم عليه.

فالأمم العظيمة لا تحفظ رجالها بالحجارة...

بل تحفظهم في ضمير أجيالها.

أما نحن...

فسنقف أمام قبره مرةً أخرى.

لا لنرثي رجلًا مات قبل أن تصل أسرته...

بل لنقول له، بعد مئةٍ وثلاثين عامًا:

لقد تأخرنا كثيرًا...

لكننا لم ننسَك.

سلامٌ عليك يا عبد الله النديم...

وسلامٌ على كل من دفع ثمن حبه لوطنه.

وسلامٌ على كل من غادر الدنيا، قبل أن يكتمل اللقاء الذي انتظره طويلًا.

لا أطلب من أحد نقل رفاته لمصر،

أو حتى زيارة رسمية لقبره،

بل أن نحييه ونشكره بطرقنا المختلفة:

أن نقرأ تراثه،

أو نبحث في سيرته،

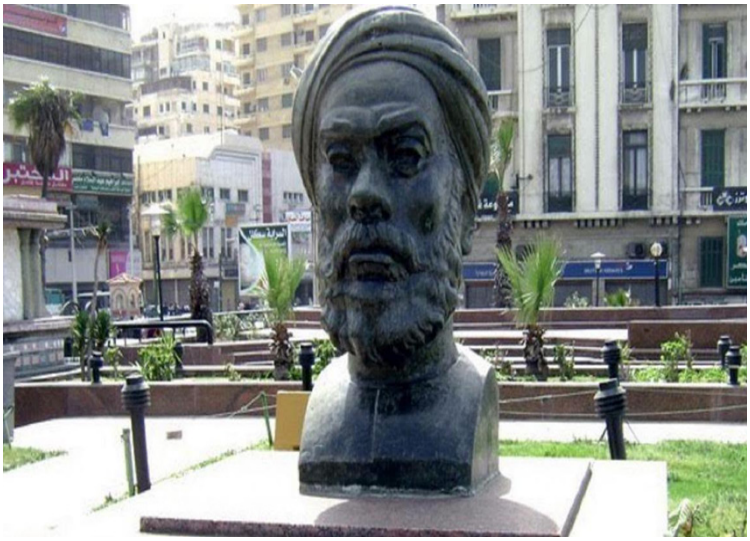
أو نحدّث أبناءنا عنه،

(كما فعلت اليوم مع ابني)،

أن نترحم عليه، ونكتب عنه ولو سطرًا.

أما أنا، فحين أغادر المقبرة سألتفت كما فعلت قبل عشر سنوات، لأجدد وعدي:

أن يبقى اسمه حيًا ما دام في العمر بقية.




UYAR
MERMER

(2) النديم في ذكراه الـ130

القبر الذي خدعني توقيعه

قبل نحو عشر سنوات وقفت في مقبرة يحيى أفندي في بشكتاش أمام شاهد عثماني قديم. كنت أبحث عن عبد الله النديم. وكان قلبي أسرع قليلًا من عين الباحث. قرأت في أسفل الحجر كلمة واحدة. النديم. كانت كافية يومها كي أستريح. فأنا أبحث عن النديم واسمه أمامي. التقطت صورة إلى جوار الشاهد وغادرت مطمئنًا إلى أنني عرفت أخيرًا أين انتهت رحلة خطيب الثورة العرابية وزعيم المنفيين.

مضى عقد كامل. وعدت إلى المقبرة هذه الأيام استعدادًا للذكرى المئة والثلاثين لرحيله. لكن بعض الأخطاء لا تكشف نفسها فورًا. تنتظرنا طويلًا حتى نعود إليها بعيون أخرى. رأيت كلمة «النديم» على شاهد آخر. ثم على شاهد غيره. وهنا بدأ اليقين القديم يتشقق. بحثت أكثر حتى جاءت المفاجأة التي أضحكتني بقدر ما أوجعتني. النديم الذي قرأته قبل عشر سنوات لم يكن اسم

صاحب القبر. كان توقيع الخطاط الذي كتب الشاهد.

والأغرب أن البحث العلمي جاء ليمنح هذه المفارقة دليلها. فالباحثة التركية طوبا روهنكيز أزاكلي أعدت في جامعة مرمرة دراسة موسعة عن شواهد مقبرة يحيى أفندي. ثم نشرت بحثًا متخصصًا عن توقيعات الخطاطين على تلك الشواهد. أحصت فيه تسعة وسبعين شاهدًا يحمل توقيعات خطاطين. وبين الأسماء يظهر خطاط باسم «نديم» على الشاهد رقم ألف وأربعمئة واثنين وستين. لكنه شاهد مصطفى صائب بك المتوفى سنة ألف وتسعمئة وواحد وعشرين. أي أن كلمة «النديم» التي قد تراها أسفل حجر ليست بالضرورة اسم من يرقد تحته.

كأن الحجر انتظر عشر سنوات ليقول لي بهدوء. ارجع إلى البداية. وهذه المرة لا تكتف بما تحب أن تراه.

ومن هذه الخديعة الصغيرة بدأت الرحلة من جديد. خلال الساعات الأخيرة بدأت أطرق أبوابًا

سبق أصحابها أن اقتربوا من الرجل أو من قبره. تواصلت عبر صديق مشترك مع الكاتب والصحفي بلال فضل. وبلال ليس عابرًا في هذه الحكاية. فقد سبق إلى الطريق نفسه وكتب سلسلة حملت عنوان «البحث عن قبر النديم». وفي رحلته استعان بالمؤرخ عمرو عبد العزيز منير. وهو أحد مؤسسي حملة بدأت سنة ألفين وتسعة تحت عنوان جميل ما زال صالحًا للحياة. «بصوتك عبد الله النديم يعود للوطن».

ومن كتابة بلال فضل ظهر خيطان لا أريد أن يضيعا. الأول أن عمرو عبد العزيز منير أعطاه طرف خيط في رحلة البحث. والثاني أن فردًا من أسرة النديم كان قد تواصل مع الحملة. ثم عاد بلال سنة ألفين وواحد وعشرين ليضيف خيطًا أكثر إثارة. قال إن كاتبًا صديقًا يقيم في إسطنبول أخبره بأنه استطاع الوصول إلى قبر النديم. لكنه لم يسمه. ومن هنا أبحث الآن عن هذا الكاتب. أين وقف. ماذا رأى. هل التقط صورة. هل احتفظ برقم أو علامة أو اسم موظف في المقبرة. فربما تكون بين يديه القطعة الناقصة من الخريطة.

وتواصلت كذلك مع الكاتب والصحفي التركي محمد زاهد جول. وكانت إضافته مختلفة. لفت نظري إلى أن زاوية يحيى أفندي ليست مجرد مقبرة تاريخية. المكان نفسه ارتبط عبر القرون برجال دولة وعلماء وأهل قصر وشخصيات من دوائر التأثير العثمانية. وهذا يمنح دفن عبد الله النديم هناك معنى يتجاوز مصادفة المكان. فربما يخبرنا القبر عن مكانة الرجل في الآستانة بقدر ما يخبرنا عن نهايته.

وسأتواصل خلال الساعات المقبلة مع الكاتب والمفكر عمار علي حسن. فهو أيضًا دخل هذه الحكاية من باب الوجدان قبل الأرشيف. زار إسطنبول مؤخرًا. وسأل عن قبر النديم. ثم عاد حزينًا لأن من سألهم لم يتفقوا على مكانه. وفي أغسطس الماضي كتب قصيدته الجميلة «منسي في إسطنبول» مهداة إلى خطيب الثورة العرابية.

وأتمنى بعد التواصل معه والاتفاق المناسب أن تتحول روح هذه القصيدة في حملتنا إلى عمل غنائي أصلي يليق بذكرى زعيم المنفيين. فبعض السير لا تكفيها المقالات. تحتاج إلى صوت. وإلى

لحن. وإلى ذاكرة تعرف كيف تغني. لكنني سأبحث مع عمار علي حسن أيضًا عن أي اسم صادفه أو رواية سمعها أو شخص قابله في رحلته. فربما يحمل هو الآخر طرفًا من الطريق.

وعلى الطرف التركي تقف طوبا روهنكيز أزاكلي. درست شواهد المقبرة في رسالة ماجستير بجامعة مرمرة سنة ألفين وتسعة. وتعمل اليوم في جامعة كوجالي. وأريد الوصول إليها مباشرة لمعرفة إن كانت صور الجرد القديم أو ملاحظاتها الميدانية تحمل اسم عبد الله النديم أو وصفًا يمكن أن يقود إلى موضع قبره.

هكذا لم تعد أمامي مقبرة فقط. صار أمامي بشر وذكريات ووثائق متفرقة. بلال فضل. عمرو عبد العزيز منير. محمد زاهد جول. عمار علي حسن. طوبا روهنكيز أزاكلي. وخلف الجميع أرشيف عثماني ضخم لم يقل كلمته بعد.

ولهذا اتسعت رحلتي. لم أعد أبحث فقط عن رقم قبر. أبحث عن الرجل نفسه. عن أوراق عبد الله النديم التي بقيت في الآستانة. عن كتبه التي ربما

لم تصل إلى مصر. عن مراسلاته. عن التقارير التي كتبت عنه. عن سنوات عمله مفتشًا للمطبوعات العربية. عن علاقته بجمال الدين الأفغاني. عن الأوراق التي قيل إنها بقيت بعد موته لدى محمد ظافر. وعن أي أثر طوته السياسة أو الرقابة أو الزمن.

لذلك أوجه دعوة مفتوحة إلى كل باحث مصري أو تركي يعرف الأرشيف العثماني. وإلى المتخصصين في قراءة الوثائق العثمانية. وإلى الباحثين في الأوقاف التركية وسجلات المقابر القديمة. وإلى أسرة عبد الله النديم وأقاربه إن بقي لديهم شيء من الأوراق أو الصور أو الذاكرة. لا أبحث عن رقم يوضع فوق خريطة فقط. أبحث عن جزء من تاريخ مصر ظل في المنفى.

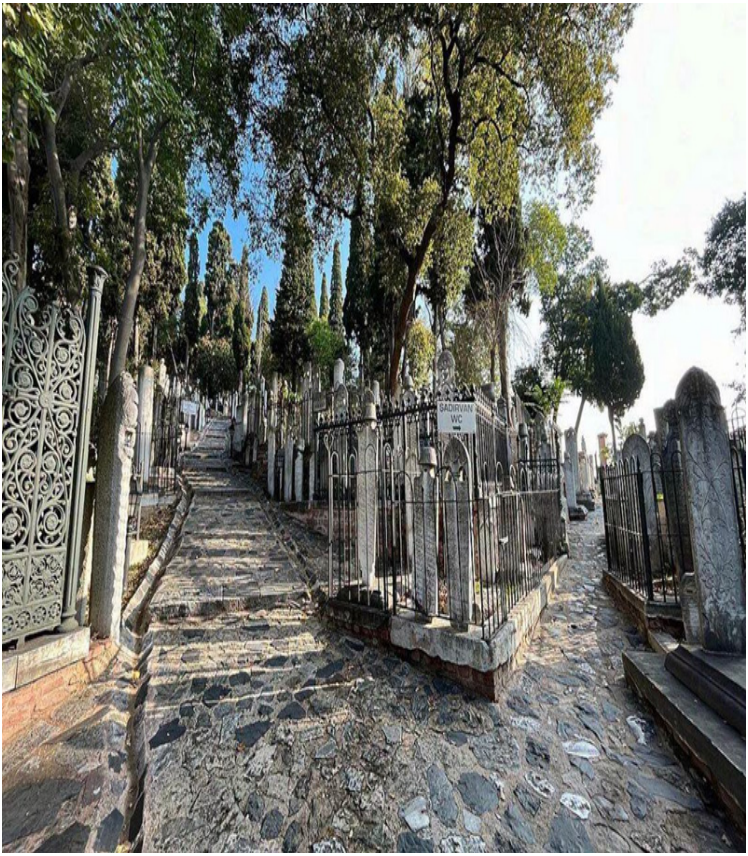
لقد مات عبد الله النديم بعيدًا عن وطنه. لكن الأكثر قسوة أن تبقى بعض حياته نفسها بعيدة عنه. أن تبقى الأوراق في مكان. والذاكرة في مكان. والقبر بلا رقم في ذاكرتنا. والرجل حاضرًا في كتب التاريخ وغائبًا عن الطريق المؤدي إليه.

أما كلمة «النديم» التي خدعتني على الحجر قبل عشر سنوات فلم أعد غاضبًا منها. ربما أدت مهمتها متأخرة. أوقفت بحثي مرة. ثم أعادته اليوم من البداية. وهذه المرة لن أكتفي بكلمة في أسفل شاهد.

أريد الاسم كاملًا. والقبر كاملًا. والرقم. والسجل. والأوراق. والحكاية لسنوات النفي الإجباري للراحل عبد الله النديم.

لا فقط توقيع الخطاط. ولا ظل الاسم. ولا وهم الوصول.

فأحيانًا يكون الخطأ الصغير هو الباب الذي ندخل منه إلى الحقيقة الكبيرة. وأحيانًا يبدأ العثور على رجل من الاعتراف بأننا لم نعثر عليه بعد.


DARWIN
WC



'sel 5: Kitabesini Sami Efendi'nin



Görsel 6: Kitabesi Sami Ef

(3) رحلة البحث عن النديم في 2141 مقبرة

[مقابر ترد الروح بالبوسفور]

بعد عشر سنوات من رحلتي الأولى للبحث عن قبر الأستاذ عبد الله النديم، عدت اليوم إلى المكان نفسه.

لم تكن العودة تكرارًا لزيارة قديمة. كنت أحمل أسئلة أكثر، ويقينًا بالوصول أقل، وشوقًا أكبر للحقيقة. لم أذهب هذه المرة منفردًا؛ اصطحبت معي تمثاله الذي سنزيح الستار عنه في 11 أكتوبر 2026، في الذكرى الـ 130 لرحيله. كأنني اصطحبت تمثاله معي كي يراه وهو في آخر عنوان له، في رحلة رمزية لإعادته من وإلى وطن ظل يسكنه حتى وهو بعيد عنه.

وقفت وأمامي ألفان ومئة وواحد وأربعون شاهدًا مرقمًا. وبينها، في مكان لم نحدده بعد، يرقد النديم.

كنت أبحث بعيني عن رقم، لا أعرفه، لرجل أعرفه وأرى كل يوم بعض ملامحه. المكان كان يدفعني كل بضع خطوات أن أنسى الأرقام التي مررت بها.

المقابر تصعد وتهبط بين الأشجار، ويطل بعضها على البوسفور، حيث يتجاور الحجر مع الماء، والموت مع زرقة لا تنتهي. قلت لرفيقي في الرحلة فهمي السباعي وأنا أتأمل المشهد: إنها مقابر ترد الروح. ولم تكن العبارة مجاملة لجمال المكان. هنا يبدو الموت أقل قدرة على إغلاق القلوب والأبواب.

أتأمل الأسماء، ثم أعود إلى البحث عن اسم النديم.

شاهد بعد شاهد. اسم بعد اسم. ممر يقود إلى ممر. وبينما تتتبع عيني الحروف والأرقام، كان خيالي يتتبع خطى أخرى.

تخيلت عبد الله النديم يسير في هذه الأنحاء. وتخيلت عمامته ولحيته جمال الدين الأفغاني، الذي عرفه النديم في الآستانة والتقاه فيها. يسير إلى جواره، رجلان عاشا تجربة المنفى، والتقيا في عاصمة كانت تضج بأصوات الإصلاح.

عندها بدا لي أنني لا أبحث عن قبر مصري في مدينة تركية فقط. كنت أبحث عن أثر جسر

قديم بين القاهرة والآستانة.

عن لحظة تلاقت فيها أفكار إصلاحيين عرب وعثمانيين حول قضايا أكبر من الحدود. فكيف ينهض هذا الشرق؟ وكيف تستعيد شعوبه إرادتها في زمن تتنازعها فيه مطامع الخارج وأزمات الداخل؟

عدت إلى الشواهد، وإلى السؤال العملي الذي جاء بي. لماذا دُفن عبد الله النديم هنا تحديدًا؟ فمقبرة يحيى أفندي لم تكن مكانًا عابرًا أو عاديًا في الدولة العثمانية. فحول الزاوية دُفن عبر القرون رجال دولة وعلماء ومتصوفة وأهل قصر وشخصيات ذات حضور في مجتمعها.

وكلما عرفت أكثر عن المكان، ازداد فضولي تجاه اختيار هذا الموضع لدفن النديم. من اختاره؟

ومن رتّب جنازته؟

ومن وقف هنا يوم نزل جسده إلى التراب؟

ومن صاحب المكان؟

من هو يحيى أفندي الذي حملت الزاوية والمقبرة اسمه، ثم انتهت رحلة زعيم المنفيين إلى

جـواره بعـد أكثـر مـن ثلاثـة قـرون مـن وفاتـه؟

يحيـى أفنـدي ولـد فـي طرابـزون التـي يحمـل اسـمها الآن محمـد صلاح، كان مولـده فـي أواخـر القـرن الخامـس عشـر. كان أخًـا فـي الرضاعة للسـلطان سـليمان القانونـي. وجـاء إلـى إسـطنبول طالبًـا للعلـم، ثـم صـار مدرسًـا وعالمًـا وصوفيًـا وشـاعرًا.

لكنـه لـم يفهـم التصـوف باعتبـاره هروبًـا مـن الحيـاة. فظـل قريبًـا مـن النـاس، حاضـرًا فـي شـؤون المجتمـع، متـصلًا بدوائـر الحكـم، يكتـب وينصـح ويختلـف.

وأنـا أقـرأ سـيرته وسـط المـكان الـذي صنعـه، لـم أسـتطع مقاومـة المقارنـة. بينـه وبيـن النديـم ثلاثـة قـرون، ولا يصـح أن نمحـو اخـتلاف الزمنيـن، لكـن شيئًـا إنسـانيًا جمعهمـا فـي ذهنـي.

كلاهمـا عـرف قيمـة الكلمـة حيـن تخـرج مـن الكتـب إلـى النـاس. وكلاهمـا اقتـرب مـن دوائـر السـلطة دون أن تكـون السـلطة هـي مصـدر قيمتـه. وكلاهمـا دفـع، بطريقتـه وفـي زمنـه، ثمنًـا لموقـف أو كلمـة.

ترك يحيى أفندي التدريس الرسمي بعد خلافات مع رجال نافذين، واختار بشكتاش ليقيم زاويته. هي أقرب لمنتدى سياسي وثقافي وفكري.

ومن حولها نشأ فضاء يلتقي فيه العالم بالمتصوف، وصاحب الحاجة بصاحب النفوذ. وبعد وفاته سنة ألف وخمسمئة وواحد وسبعين، بقي المكان حيًا باسمه، ثم صار جواره عبر القرون موضع دفن لشخصيات من دوائر الدولة والعلم والتصوف والمجتمع العثماني.

عدت بعدها إلى مهمتي. أفتش عن شاهد واحد بين ألفين ومئة وواحد وأربعين. لكن المعرفة الجديدة بالمكان جعلت الرقم الذي أبحث عنه أثقل معنى.

فإذا كان النديم قد دُفن في هذا الفضاء تحديدًا، فإن موضع قبره قد يحمل معلومة عن مكانته في سنوات الآستانة، لا عن مكان موته فقط.

ومن هنا ولدت لدي ألغاز وأسئلة جديدة. هل كان اختياره للدفن في يحيى أفندي مرتبطًا بمن عرفهم في إسطنبول؟

هل تكشف سجلات الجنازة والدفن أسماء أشخاص من دوائر الإصلاح أو الدولة؟

وهل يمكن أن يقودنا رقم القبر، حين نجده، إلى سجل يحمل معلومة لم ترد في السير المصرية؟

كنت أبحث عن حجر، فإذا بالحجر يقودني إلى الأرشيف. وهذه هي متعة البحث وألمه.

كل إجابة صغيرة تفتح سؤالًا أكبر. وكلما اقتربنا من الرجل اكتشفنا كم تركنا من حياته في الظل.

وبين شاهد وآخر راودتني مفارقة مصرية موجعة. قلت لنفسي إن قبرًا كهذا لو وقع عندنا في طريق جسر جديد، أو في مسار توسعة شارع، لربما احتاج هو نفسه إلى حملة لإنقاذه.

ابتسمت بحزن. هنا تحرس الأحجار أصحابها قرونًا، وتكبر الأشجار من حولهم، دون أن تقطع ويبقى البحر أمامهم دون أن يحجب.

أما نحن فنخسر أحيانًا الذاكرة قبل أن نخسر الحجر.

ثم عدت مرة أخرى إلى النديم. إلى الرجل الذي جاء إلى الآستانة منفيًا، لكنه لم يأتِ إليها فارغًا.

جاء حاملًا مصر في لغته، وفي غضبه، وفي سخريته، وفي مشروعه للإصلاح. وهناك التقى جمال الدين الأفغاني، وعمل مفتشًا للمطبوعات العربية، ودخل في شبكة من العلاقات الفكرية والسياسية ما زلنا نحاول اليوم إعادة تركيبها من الوثائق والشهادات المتناثرة.

لهذا ازداد حنيني إليه وأنا أمشي. لم يكن حنينًا إلى شخصية قرأت عنها في كتاب.

كان حنينًا إلى منفي ظل وطنه حاضرًا فيه أكثر مما كان هو حاضرًا في وطنه.

وإلى مصري وجد نفسه بعيدًا عن النيل، لكنه لم يسمح للمسافة أن تنتزع مصر من صوته.

حملت تمثاله بين الممرات، وشعرت للحظة أن المشهد يحمل مفارقة لا تحتاج إلى بلاغة. أنا الذي جئت أبحث عنه كنت أحمله معي.

الرجل الذي مات هنا منذ مئة وثلاثين عامًا عاد في صورة جديدة إلى المكان الذي احتفظ بجسده.

ولم يكن ينقص المشهد إلا أن نجد الحجر الصحيح، فنضع تمثاله أمام اسمه، وينتهي غياب طال أكثر مما ينبغي.

لكن البحث لم يحسم اليوم. لم أصل بعد إلى رقم القبر.

ما زالت أمامنا سجلات ينبغي أن تُفتح، وصور قديمة ينبغي أن تُراجع، وجرد علمي للشواهد نحاول الوصول إلى تفاصيله.

لذلك لا أريد أن أستبدل نقص الوثيقة بجمال الحكاية.

النديم مدفون هنا. أما موضعه الدقيق فما زلنا نبحث عنه.

وهذا اليقين الناقص هو ما يجعلني أعود. كل معلومة عن يحيى أفندي تساعدني على فهم البيئة التي احتضنت النديم.

وكل وثيقة عثمانية نصل إليها تضيف قطعة إلى سنوات الآستانة.

وكل خطوة بين الشواهد تضيق، ولو قليلًا، المسافة بين الاسم والقبر.

قبل عشر سنوات كنت أريد أن أعرف أين دُفن النديم. اليوم أريد أن أعرف أيضًا كيف عاش هنا.

مع من جلس؟

ماذا كتب؟

من أحب ومن خاصم؟

ماذا بقي من أوراقه؟

ماذا قالت عنه الدولة التي راقبته ثم وظفته؟

وكيف عاش مفارقة أن يكون صاحب «الأستاذ» ومطارد السلطات، ثم يصبح في عاصمة الخلافة مفتشًا للمطبوعات العربية؟

أريد الرجل كله، لا قبره وحده. لأن القبر، مهما كان عزيزًا، ليس إلا آخر سطر. وأنا أبحث الآن عن الصفحات التي سبقته.

وحين هممت بالمغادرة، نظرت إلى البوسفور مرة أخرى. السفن تمضي بين الضفتين، فبدا لي الماء نفسه جسرًا يشبه النديم. لا يقيم عند ضفة واحدة. يصل ولا يفصل. وفكرت أن هذه ربما كانت صورة مناسبة لرجل كان مصريًا حتى النخاع، لكنه صار في سنواته الأخيرة واحدًا من جسور الحوار بين الإصلاحيين العرب والعثمانيين.

عندها فهمت أكثر لماذا قلت لصاحبي إنها مقابر ترد الروح. لأنها لم ترد إلي روح الموتى، بل ردت إلي روح البحث. كلما أعطتني معلومة منحتني معها سؤالًا. وكلما أغلقت طريقًا فتحت آخر.

وسأعود. بين ألفين ومئة وواحد وأربعين شاهدًا لا يزال هناك شاهد نبحث عنه. وخلف ذلك الشاهد رجل نريد أن نستعيد سنواته الأخيرة. وخلف الرجل حكاية مصرية عثمانية لم تُكتب كاملة بعد.

وسأعود لأن عبد الله النديم، زعيم المنفيين، كلما اقتربت من أثره بدا لي أقل غيابًا وأكثر حضورًا. وكأن الرجل لم يترك لنا قبرًا لنزوره فقط، بل ترك طريقًا طويلًا كي نعيد اكتشافه.

د. أيمن نور يكتب: مقابر ترد الروح بالبوسفور.. رحلة البحث عن النديم في 2141 مقبرة (3 من 15)





(4) بيسان عدوان... وبيت شعر يبحث عن قبر

منذ أيام وأنا أشعر أن عبد الله النديم لم يعد بالنسبة لي شخصية أقرأ عنها، ولا حتى رجلًا أكتب عنه. صار رفيق طريق. أذهب إلى مقابر يحيى أفندي فأبحث عنه. أعود إلى بيتي فأفتش في أوراقه. أستيقظ على خيط جديد يقودني إليه، وأنام وفي رأسي اسم أو وثيقة أو شاهد لم أصل إليه بعد. وربما لهذا أصبح الرجل، بعد مئة وثلاثين عامًا من رحيله، حاضرًا في يومي على نحو لم أتوقعه.

بدأت علاقتي بهذا القبر قبل نحو عشر سنوات. ذهبت إلى يحيى أفندي أبحث عن النديم، ووقفت أمام شاهد عثماني وجدت أسفله كلمة «النديم». فرحت يومها كمن وجد صديقًا غائبًا. التقطت صورة إلى جواره، وغادرت مطمئنًا إلى أنني عرفت أين يرقد زعيم المنفيين. ولم أكن أعرف أنني سأعود بعد عقد كامل لأكتشف أن الكلمة التي أسعدتني لم تكن اسم صاحب القبر، بل توقيع الخطاط.

كان اكتشافًا محرجًا وموجعًا، لكنه أيقظ شيئًا داخلي. شعرت أنني مدين للرجل بأن أبدأ من جديد. هذه المرة لا أريد قبرًا يناسب رغبتي في العثور عليه. أريد قبره هو. بالاسم والرقم والسجل والدليل. وربما لهذا تحولت الأيام الأخيرة عندي إلى رحلة شخصية، تتداخل فيها مشاعر المنفي مع عناد الباحث وحنين المصري إلى رجل سبقه إلى تجربة البعد عن الوطن بأكثر من قرن.

عدت إلى المقبرة مرة أخرى. وهذه المرة حملت معي تمثال عبد الله النديم الذي سنزيح الستار عنه في الحادي عشر من أكتوبر. كان المشهد غريبًا ومؤثرًا بالنسبة لي. كنت أحمل صورة الرجل بين ذراعي، وأسير بها بين أكثر من ألفي شاهد، بينما جسده يرقد في مكان ما على بعد خطوات مني ولا أعرف أين.

يومها شعرت بشيء يصعب شرحه. لم أعد أبحث عن ميت. كنت أبحث عن رفيق منفى لم ألتقه. رجل عاش قبلي بقرن، لكنني أفهم اليوم شيئًا من وجعه لم أكن لأفهمه لو بقيت حياتي كلها داخل مصر. فالمنفى يجعل بعض الكتب

شخصية. ويحول بعض السير القديمة إلى مرايا.

وسط هذه الحالة وصلني نص للكاتبة الفلسطينية بيسان عدوان. قرأته فتوقفت أمامه طويلًا. بيسان كاتبة وناشرة فلسطينية عرفت السجن والمنفى والاقتلاع، ولذلك لم تكتب عن النديم من وراء زجاج التاريخ. كتبت عنه وهي تحمل من غربتها ما يسمح لها بأن تسمع غربته.

ربما لهذا شعرت وأنا أقرأها أن النص يقترب من المساحة نفسها التي أقف فيها هذه الأيام. يافا تختلط بالقاهرة. وإسطنبول بفلسطين. ومنفى فلسطينية معاصرة بمنفى مصري رحل سنة ألف وثمانمائة وستة وتسعين. وكأن المنفى، رغم اختلاف الأزمنة والأوطان، يحتفظ باللغة نفسها.

بحثت بيسان عدوان هي الأخرى عن قبر النديم في إسطنبول. سألت وفتشت وواجهتها روايات متعارضة عن موضعه. وعرفت جيدًا، وأنا أقرأها، شعور أن تمشي وراء رجل تعرف أنه هنا، لكنك لا تستطيع أن تشير إلى حجر وتقول بثقة: هنا يرقد.

لكن أكثر ما شدني في نصها كان بيتًا من الشعر قالت إنه كُتب على شاهد قبر مجهول في إحدى مقابر إسطنبول:

«بالأمس عاش غريبًا في ديارهمُ

واليوم مات غريبَ اللحدِ والكفنِ»

قرأت البيت أكثر من مرة. ربما لأن كلمة «غريب» لم تعد بالنسبة لي كلمة أدبية خالصة. هناك كلمات يتغير معناها بعد أن نعيشها. الوطن واحدة منها. والمنفى واحدة. والغريب واحدة.

ثم تذكرت أنني رأيت هذا البيت من قبل وأنا أراجع ما كتبه بلال فضل في رحلته للبحث عن قبر النديم. فقد أشار بلال إلى رواية تقول إن شاهد قبر عبد الله النديم لم يحمل سوى هذا البيت. لكنه وجد رواية أخرى ترجح أنه لم يُنقش على القبر أصلًا، وإنما كان جزءًا من مرثية قيلت في النديم بعد موته.

وهنا شعرت أن الرحلة تسخر منا مرة أخرى بطريقة جميلة.

قبل أيام اكتشفت أن اسم «النديم» الذي قادني إلى قبر خاطئ كان توقيع خطاط.

واليوم أجد بيتًا من الشعر قد يكون هو الآخر انتقل من قصيدة إلى قبر لم يكن له.

وكأن كل شيء حول النديم يقول لي: لا تستعجل.

صرت الآن أبحث عن رجل، وعن قبر، وعن أوراق، ثم أضيف إليهم بيت شعر.

بيت شعر يبحث عن قبر.

هل كُتب فعلًا على شاهد النديم في يحيى أفندي؟ أم رآه شخص على قبر آخر فاختلطت غربتان في الذاكرة؟ أم أنه لم يعرف الحجر أصلًا، وظل بيتًا في مرثية، قبل أن تمنحه الحكايات قبرًا كما منحت القبر قصيدة؟

لا أعرف بعد. وهذا بالضبط ما يجعلني أريد أن أعرف.

حتى الآن لم أعثر على صورة موثقة لشاهد النديم تحمل البيت. ولم أعثر على جرد تركي يربط النص بقبره. ولذلك لن أكرر خطئي القديم.

لـن أسـمح هـذه المـرة لرغبتـي فـي جمـال الحكايـة أن تسـبق الحقيقـة.

سـأبحث عـن البيـت كمـا أبحـث عـن القبـر. عـن أول مـرة نُشـر فيهـا. وعـن قائلـه. وعـن المرثيـة كاملـة إن بقيـت. وعـن صحيفـة قديمـة أو كتـاب أو سـجل يعيـده إلـى موضعـه الصحيـح.

والمثيـر بالنسـبة لـي أننـي كلمـا تقدمـت خطـوة فـي هـذه الرحلـة وجـدت شـخصًا آخر سـبقني أو يسـير معـي. بلال فضـل تـرك خيوطًـا مهمـة فـي بحثـه. عمـرو عبـد العزيـز منيـر حمـل قبـل سـنوات فكـرة عـودة رفـات النديـم إلـى مصـر. عمـار علـي حسـن جـاء إلـى إسـطنبول يبحـث عنـه، ثـم كتـب قصيدتـه الجميلـة «منسـي فـي إسـطنبول». محمـد زاهـد جـول جعلنـي أنظـر إلـى يحيـى أفنـدي ومكانـة النديـم فـي الآسـتانة بعيـن أخـرى. وأبحـاث طوبـا روهنكيـز أزاكلـي أعادتني إلـى الشـواهد والحـروف والأرقـام.

ثـم جـاءت بيسـان عـدوان تحمـل إلـيّ مـن طريـق مختلـف بيتًـا مـن الشـعر وغربـة أخـرى.

لهذا لم أعد أشعر أن البحث عن النديم مشروعي وحدي. بل أتمنى ألا يكون كذلك. أريده أن يتحول في الأيام المقبلة إلى مائدة ذاكرة نجتمع حولها جميعًا. كل منا يضع عليها ما لديه. وثيقة. صورة. رواية. قصيدة. رقمًا في سجل. أو حتى شكًا في رواية قديمة يدفعنا إلى البحث من جديد.

ولهذا فإن الحادي عشر من أكتوبر القادم يحمل بالنسبة لي معنى شخصيًا يتجاوز إقامة احتفال. في ذلك اليوم سنزيح الستار في إسطنبول عن تمثال عبد الله النديم، في الذكرى المئة والثلاثين لرحيله، ضمن معرض «وجوه لا تغيب» في مركز الشرق الثقافي.

منذ بدأت إعداد التمثال كنت أفكر في الأمر باعتباره وفاءً لرجل أحببته في التاريخ. أما بعد رحلاتي الأخيرة إلى قبره، فلم يعد الأمر كذلك فقط. أشعر الآن أنني أستقبل رجلًا أعرفه. وأن التمثال ليس قطعة فنية نزيح عنها الستار، بل حضور رمزي لمنفي مصري ظل مئة وثلاثين عامًا بعيدًا عن أرضه.

لذلك أتمنى أن يكون يوم الحادي عشر من أكتوبر لقاءً لكل من سار خطوة في طريق النديم. أدعو بيسان عدوان. وأدعو بلال فضل. وأدعو عمار علي حسن. وعمرو عبد العزيز منير. وكل باحث مصري أو تركي، وكل من يحمل ورقة أو صورة أو معلومة أو محبة لهذا الرجل.

أريد أن نجلس معًا لا لنتبادل الكلمات عنه فقط، بل لنجمع الرجل من شتاته. ربما يأتي أحد بصورة لم نرها. ويأتي آخر بوثيقة. وثالث باسم. ورابع برقم. وربما يأتي شخص لا يحمل إلا بيت الشعر نفسه.

فالتاريخ، مثل المنفى، يبعثر الأشياء. ومهمتنا أن نجمعها.

وأنا أعرف الآن لماذا أصبحت هذه الرحلة شخصية إلى هذا الحد. ربما لأنني، وأنا أبحث عن عبد الله النديم، لا أستطيع أن أفصل تمامًا بين منفاه ومنافي جيل كامل من المصريين. ولا بين شوقه للعودة وشوق كل من عرف معنى أن يكون الوطن حاضرًا في القلب وغائبًا عن العين.

قبل عشر سنوات كنت أبحث عن قبر رجل من التاريخ.

اليوم أبحث عن شيء آخر.

أبحث عن الطريق الذي يعيد المنفي إلى وطنه، حتى لو تأخر الطريق مئة وثلاثين عامًا.

مات عبد الله النديم غريبًا.

ثم صار قبره غريبًا.

ثم صار البيت الذي رثى غربته غريبًا هو الآخر، يتنقل بين القصيدة والحجر، كأنه أصيب بعدوى المنفى من صاحبه.

ولهذا أريد أن نعيد الأشياء كلها إلى مواضعها.

الرجل إلى ذاكرة وطنه.

القبر إلى خريطته.

الأوراق إلى التاريخ.

والبيت إلى قصيدته.

والمنفي إلى وطنه.

وفي الحادي عشر من أكتوبر، عندما أقف أمام تمثاله وأزيح عنه الستار، أعرف أنني سأفكر في ذلك الشاهد الذي خدعني قبل عشر سنوات. وفي الألفين ومئة وواحد وأربعين شاهدًا التي مشيت بينها بحثًا عنه. وفي كل من بحث قبلي، وكل من سيبحث معي بعد اليوم.

وسأفكر أيضًا في هذا البيت التائه.

«بالأمس عاش غريبًا في ديارهمُ

واليوم مات غريبَ اللحدِ والكفنِ»

وربما كان أجمل ما يمكن أن نصنعه في الذكرى المئة والثلاثين، ألا نكتفي برثاء الغريب.

بل أن نبدأ طريق عودته.

فالمنفى قد يسرق من الإنسان عمرًا كاملًا.

لكن لا ينبغي أن نسمح له أن يسرق منه الأبد أيضًا.

(5) عندما يصافح التاريخُ الإبداعَ، تولد الحكايات

زاوية يحيى أفندي... لا تكفي زيارة واحدة

هناك أماكن لا نزورها فقط، بل نستعيد فيها صلتنا بالزمن. أماكن تدخلها وفي ذهنك غاية محددة، ثم تخرج منها وقد اتسعت الغاية وكثرت الأسئلة، وأصبحت الرحلة أكبر من سبب بدايتها. هكذا ذهبت بالأمس إلى زاوية يحيى أفندي أبحث عن عبد الله النديم، وما زلت حتى هذه اللحظة أهيم في فضائها التاريخي والمعرفي، كأنني لم أغادره بعد.

ذهبت أبحث عن قبر واحد بين ألفين ومئة وواحد وأربعين شاهدًا، فاكتشفت أن كل شاهد تقريبًا يفتح بابًا، وأن كل باب يقود إلى زمن. المكان الذي حسبته محطة في رحلة البحث عن النديم يصلح وحده لرحلات من البحث والكتابة. هنا لا تقرأ التاريخ في كتاب. تمشي داخله.

وفي الصور تبدو غابة الشواهد العثمانية أكثر بلاغة من الوصف. شاهد تعلوه عمامة حجرية، وآخر يزدحم بالخط والزخارف، وثالث تقاوم

حروفه قرونًا من المطر والريح. كنت أتأملها وأفكر في المفارقة التي بدأت منها رحلتنا كلها. قبل عشر سنوات خدعني توقيع خطاط يحمل اسم «النديم»، فظننته قبر الرجل الذي أبحث عنه. واليوم أصبحت تلك الخديعة نفسها بابًا إلى عالم كامل من فنون الشواهد والخط والذاكرة.

هنا يصافح التاريخ الإبداع فعلًا. فالشاهد ليس حجرًا كتبوا عليه اسم ميت. هو سيرة مختصرة. وخط. وزخرفة. ولقب. ومكانة اجتماعية. وأحيانًا مهنة وصلة بالسلطة أو العلم أو التصوف. الموت واحد، لكن البشر أصروا حتى في قبورهم على ألا تكون الحكايات متشابهة.

وفي صورة أظنها ستبقى طويلًا في ذاكرتي، أقف حاملًا تمثال عبد الله النديم تحت اللافتة التي تشير إلى «الشيخ يحيى أفندي... الجامع والضريح». فيها مفارقة لا يستطيع الكاتب أن يصنعها لو أراد. رجل يحمل تمثال رجل مات منذ مئة وثلاثين عامًا، ويدخل به المكان الذي نعرف أن رفاته موجودة فيه، لكنه لا يعرف بعد أين يرقد بالتحديد.

شعرت للحظة أنني لم آت بالتمثال إلى المقبرة، بل أعدت النديم إلى عنوانه الأخير. حملته كما يحمل المسافر رفيقًا تأخر عن موعده قرنًا كاملًا. وربما لهذا بدت لي الصورة أقرب إلى لقاء مؤجل منها إلى زيارة.

ثم دخلت إلى ضريح يحيى أفندي. تغير الضوء، وهدأ الصوت، وتبدلت إيقاعات المكان. في الخارج شواهد وأشجار وسماء مفتوحة. وفي الداخل ثريات وكسوة وخشب وزخارف وسكينة تجعل الإنسان يخفض صوته دون أن يطلب منه أحد ذلك.

هناك فهمت شيئًا آخر عن المكان. زاوية يحيى أفندي لم تكن مجرد مقبرة نشأت حول رجل صالح. كانت فضاءً اجتماعيًا وفكريًا وروحيًا عاش قرونًا، واقترب من الناس ومن دوائر الدولة معًا. وهذا ما يجعل وجود النديم في محيطها أكثر إثارة بالنسبة إلي. فالرجل الذي جاء إلى الآستانة منفيًا لم ينته إلى هامش المدينة، بل انتهت رحلته في موضع يحمل في ذاكرته أسماء من قلب التاريخ العثماني.

وفي صورة أخرى أقف أمام كتابة عثمانية، أشير إلى سطورها كما لو كنت أحاول أن أستوقف الزمن نفسه. أصبحت الكتابة العثمانية بالنسبة إلي في هذه الأيام أكثر من لغة قديمة لا أجيد قراءتها. صارت صندوقًا مغلقًا أعرف أن بعض مفاتيح حكاية النديم قد تكون داخله. اسم في سجل. أمر دفن. خبر جنازة. مراسلة رسمية. أو سطر صغير يجيب عما نبحث عنه منذ أيام.

لهذا صرت أنظر إلى كل حرف بشيء من الفضول. ربما تكون الوثيقة التي نبحث عنها قريبة إلى هذا الحد، ولا ينقصنا إلا أن نعرف كيف نسألها.

وبين الصور مشهد استوقفني طويلًا. أقف بين القبور، وفي الأفق يظهر جسر البوسفور خلف الأشجار. قبر في المقدمة وجسر في البعيد. ولم أستطع أن أتعامل مع الصورة باعتبارها مصادفة بصرية.

فالجسر هو الصورة التي تطاردني منذ بدأت أقرأ سنوات النديم في الآستانة. كان عبد الله النديم

نفسه جسرًا. مصريًا حتى النخاع، لكنه عاش سنواته الأخيرة وسط عالم عثماني من المفكرين ورجال الدولة والصحفيين والمتصوفة. وكان جمال الدين الأفغاني جسرًا آخر. كلاهما تحرك بين مدن وثقافات وحدود، يحمل فكرة الإصلاح أكبر من جواز السفر.

الموت يفصل، والجسر يصل. والمنفى يبعد، والذاكرة تعيد. وبين الفعلين نحاول نحن أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من الحكايات.

وربما لهذا لم أعد أتعامل مع الألفين ومئة وواحد وأربعين شاهدًا بوصفها رقمًا ضخمًا يعوق البحث. صرت أراها ألفين ومئة وواحدًا وأربعين احتمالًا. وكل احتمال نسقطه بالدليل يجعلنا أقرب إلى الرجل.

أمام ضريح يحيى أفندي عاد إلي خاطر آخر. الرجل الذي عاش في القرن السادس عشر لم يعرف النديم، والنديم جاء بعده بثلاثة قرون. لكن التاريخ جمعهما في رقعة صغيرة من إسطنبول. الأول صنع للمكان روحه، والثاني جاء إليه في

نهايـة رحلـة طويلـة مـن الثـورة والمطـاردة والمنفـى.

وبينهمـا مـر سلاطيـن ودول وحروب وثـورات. تغيرت خرائـط وسـقطت إمبراطوريـات، وبقـي المـكان. وهذه ربمـا أعظـم قـدرة للأماكـن. البشـر يرحلون، والسـلطات تتغيـر، والخرائـط يعـاد رسـمها، لكـن حجـرًا صغيـرًا قـد يحتفـظ باسـم أكثـر ممـا تحتفـظ بـه دولـة كاملـة.

لذلـك وجدتنـي أقـارن، مـرة أخـرى، بيـن احتـرام الذاكـرة هنـا ومـا نفعلـه أحيانًـا بذاكرتنـا فـي مصـر. أحجـار عمرهـا قـرون بقيـت فـي مواضعهـا. شـواهد تُقـرأ وتُرمـم وتُـدرس. بينمـا يمكـن عندنـا أن تصبـح مقبـرة تاريخيـة عقبـة فـي طريـق، أو يتحـول أثـر إلـى مسـاحة مطلوبـة لمشـروع جديـد.

لا أقـول هـذا لأمـدح مكانًـا وأديـن آخـر. أقولـه لأن الأمـم لا تحفـظ تاريخهـا بالكتـب وحدهـا. تحفظـه أيضًـا بـأن تتـرك للأجيـال فرصـة أن تقـف فـي المـكان نفسـه الـذي وقـف فيـه أصحـاب الحكايـة.

وأنـا بالأمـس كنـت واحـدًا مـن هـؤلاء. وقفـت حيـث وقـف رجـال رحلـوا منـذ قـرون. دخلـت المـكان الـذي حمـل أسـماءهم. حملـت تمثـال رجـل

أبحث عن قبره. قرأت ما استطعت من الحجارة، وعجزت عن قراءة الكثير. ومشيت وراء أثر عبد الله النديم، فإذا بي أتعلم من يحيى أفندي، ومن الخطاطين، ومن الشواهد، ومن العمائم الحجرية، ومن الجسر البعيد.

ذهبت أبحث عن قبر، فوجدت متحفًا بلا سقف.

وذهبت أبحث عن ميت، فوجدت مكانًا يفيض بالحياة.

وربما لهذا قلت إنها مقابر ترد الروح.

ما زلت لم أصل إلى قبر النديم. وهذا يجب أن يبقى واضحًا. البحث مستمر. لكنني بدأت أفهم أن الوصول إليه لن يكون نهاية الرحلة. ربما يكون بدايتها الحقيقية.

لأنني كلما اقتربت من قبر عبد الله النديم، أبتعد أكثر عن فكرة أن الرجل مجرد صفحة من الثورة العرابية. أراه الآن صحفيًا ومنفيًا ومصلحًا وجسرًا بين عالمين. رجلًا ترك جزءًا من حكايته في القاهرة، وجزءًا في يافا، ثم ترك آخر أسراره هنا في الآستانة.

في الحادي عشر من أكتوبر سنزيح الستار عن تمثاله في الذكرى المئة والثلاثين لرحيله. وبعد هذه الزيارة تغير معنى التمثال عندي. لم يعد مجرد عمل فني نستعيد به وجه رجل غاب.

صار بالنسبة إلي وعدًا.

وعدًا بأن نواصل البحث.

عن القبر.

وعن الأوراق.

وعن سنوات الآستانة.

وعن الرجل الذي تفرقت حكايته بين أكثر من مدينة وأكثر من منفى.

وربما لهذا كان أجمل ما أخذته معي من زاوية يحيى أفندي أن التاريخ ليس ما مضى.

التاريخ هو ما بقي قادرًا على أن يمسك بيدك، ويقودك إلى طريق لم تكن تعرف أنك تبحث عنه.

وعندما يصافح التاريخُ الإبداعَ... لا تولد الحكايات فقط.

تعود بعض الأرواح أيضًا.


NDİ TÜRBESİ
ŞEYH YAHYA EFENDİ KİMDİR?
WHO IS SHEIKH YAHYA EFENDI?



(6) عبد الله النديم

[المنفى لم يكتفِ بالرجل، امتد لقبره وأوراقه]

في حياة بعض الكتّاب، تضيع أوراق. أما عبد الله النديم، فكأن الضياع، حيًا وميتًا، كان قدرًا يطارده كما طاردته السلطة.

ضاع منه وطن. وضاعت سنوات. وضاعت كتب. ثم مات في المنفى، وبقي جزء من أوراقه منفيًا بعده.

ولعل أكثر ما هزني، وأنا أواصل البحث عنه بعد مئة وثلاثين عامًا، أنني اكتشفت أن الرجل الذي أبحث عن قبره في إسطنبول، ربما ترك لنا لغزًا أكبر من قبره.

أين ذهبت أوراقه وكتبه؟

تبدأ الحكاية بمشهد يصلح وحده لأن يكون فصلًا كاملًا من رواية حزينة.

الإسكندرية تُضرب في صيف الثورة العرابية. الناس يهربون. والمدينة التي عاش فيها النديم بعض أجمل وأعنف سنواته تتبعثر تحت القصف والخوف.

في ذلك الوقت، كان أبوه يحاول إنقاذ ما يستطيع إنقاذه من تراث ابنه.

تقول الرواية التي نقلها أحمد أمين إن النديم كان قد أنفق قرابة تسعة عشر عامًا في التأليف والكتابة، وإن أباه جمع أوراقه ومؤلفاته في ثلاثة صناديق كبيرة، وشحنها مع الخارجين من الإسكندرية.

وصلت الصناديق إلى كفر الزيات. وكان الازدحام هائلًا. ولكي يستوعب القطار المزيد من الفارين، ألقيت الأحمال من إحدى العربات إلى النيل.

وكانت بينها صناديق النديم الثلاثة.

ثلاثة صناديق فقط. لكنها كانت تحمل، بتعبير أحمد أمين، ثروته العقلية.

توقفت طويلًا أمام هذا المشهد.

فليس كل ما يغرق في الماء يموت في اللحظة نفسها. بعض الأشياء تظل تغرق لأكثر من قرن.

نحن لا نعرف ماذا كان داخل تلك الصناديق. أي كتب اكتملت. أي أفكار لم تصلنا. أي قصائد اختفت. وأي عبد الله نديم آخر كان يعيش بين تلك الأوراق، ولم تتح له فرصة الوصول إلينا.

الكاتب لا يضع الحبر فوق الورق فقط. هو يضع شيئًا من عمره.

لهذا، عندما غرقت الصناديق، لم يغرق ورق.

غرقت سنوات من حياة رجل.

وربما لهذا أصبحت الكتابة، بعد ذلك، مقاومته الأشد عنادًا.

اختفى سنوات طويلة، تتعقبه أجهزة السلطة وتطارده العيون، ويتنقل بين القرى والبيوت والملابس والأسماء.

لكن المفارقة أن الرجل كان يختفي بجسده، ويزداد ظهورًا فوق الورق.

جرجي زيدان ينسب إليه خلال سنوات اختفائه واحدًا وعشرين كتابًا في فنون مختلفة.

واحد وعشرون كتابًا يكتبها رجل لا يستطيع أن يخبر الناس أين ينام.

رجل تضيق حوله الجغرافيا، فيوسع داخل رأسه العالم.

كان الخوف يطارده من قرية إلى قرية. وكان هو يرد عليه من صفحة إلى صفحة.

وبعد نحو قرن من رحيله، اجتمع في القاهرة عدد من كبار الباحثين ليعيدوا قراءة هذا الرجل.

انعقدت ندوة المجلس الأعلى للثقافة عن عبد الله النديم في مايو سنة ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين، ثم صدرت أبحاثها في كتاب سنة ألف وتسعمئة وسبعة وتسعين.

والقيمة الحقيقية لهذا الكتاب، في تقديري، أنه لم يكتف بالبحث عن النديم في أحداث الثورة أو في سيرته السياسية.

بحث عنه داخل أدواته.

كيف كان يفكر؟ كيف كان يكتب؟ كيف كان يصل؟ وكيف استطاع أن يجعل الفكرة السياسية

التي تبدو بعيدة عن حياة البسطاء جزءًا من حديث المقهى والدكان والقرية؟

وهنا وجدت مفتاحًا جديدًا لفهم النديم.

فقد درست ألفت الروبي عنده ما سمته بلاغة التوصيل والقص. ودرس محمود فهمي حجازي رؤيته اللغوية.

وتوقف محمد عوني عبد الرؤوف أمام المستويات المختلفة للغته. ودرست مديحة دوس استخدامه للعامية المصرية.

وتقود هذه القراءات، رغم اختلاف مداخلها، إلى معنى واحد بالغ الأهمية:

موهبة النديم الكبرى لم تكن أنه يعرف ماذا يقول فقط، بل أنه يعرف كيف يجعل الناس يسمعونه.

وهذه موهبة سياسية قبل أن تكون أدبية.

كثيرون يعرفون الفكرة. وقليلون يعرفون كيف ينقلونها. وأقل منهم من يستطيع أن يجعل الإنسان البسيط يشعر أن الفكرة التي يسمعها ليست درسًا

يُلقى عليه، بل جزء من حياته هو.

كان النديم يفهم هذه المعادلة بالفطرة.

لم يكن يكتب عن الناس من فوق. كان يدخل إليهم. يجلس بينهم. يتحدث بلغتهم. ثم يرفع اللغة معهم، بدل أن يستخدمها حائطًا يفصلهم عنه.

الفصحى عنده لم تكن استعراضًا.

والعامية لم تكن تنازلًا.

كان يتحرك بينهما كما يتحرك رجل يعرف الطريق من البيت إلى الشارع، ومن الشارع إلى المنبر.

صنع من المسافة بينهما جسرًا.

والقص عنده لم يكن زينة أدبية.

كان وسيلة لفهم السياسة.

بدل أن يشرح الظلم في صفحات من التنظير، كان يجعل الظالم والمظلوم يتكلمان. وبدل أن يقدم درسًا مجردًا في الحكم، كان يصنع موقفًا يرى القارئ نفسه داخله.

ويبدو بعض ما كتبه، من هذه الزاوية، سابقًا لزمانه.

حوارًا صحفيًا قبل أن تستقر فنون الحوار. ومشهدًا مسرحيًا داخل المقال. وحكاية قصيرة تحمل فكرة سياسية كاملة.

ولهذا رأت دراسات مؤتمر القاهرة في تجربته جانبًا مبكرًا ومهمًا من تطور السرد واللغة الصحفية الحديثة.

وهنا نفهم لماذا كان النديم مزعجًا للسلطة أكثر من عشرات المثقفين الأعلى منه صوتًا في الكتب.

السلطة لا تخشى دائمًا أكثر الناس علمًا. أحيانًا تخشى أكثرهم قدرة على تحويل المعرفة إلى وعي عام.

أن تأخذ فكرة لا يعرفها إلا عشرة، وتجعل عشرة آلاف يفهمونها. أن تنزل بالدستور من رفوف الكتب إلى المقهى. وأن تجعل معنى الوطن مفهومًا لمن لم يقرأ كتابًا في السياسة. وأن تحول الكلام عن الحقوق من لغة النخب إلى إحساس طبيعي لدى الناس بأن لهم نصيبًا في بلادهم.

هنا يصبح الكاتب أكثر من كاتب.

يصبح حلقة وصل بين الفكرة والجمهور.

وربما لهذا كان منفاه الأخير في الآستانة أكثر قسوة مما يبدو على الورق.

فمأساة النديم لم تكن في أن يبتعد عن مكان فقط. كانت في أن يبتعد عن الجمهور الذي صنع لغته من أجله.

الرجل الذي عرف طريقه إلى المصري في قهوته ودكانه وحقله، أصبح بعيدًا عن البيئة التي جعلت لصوته معناه.

ومن غرائب الأقدار أنه انتهى موظفًا في عالم المطبوعات، بعد حياة كان فيها هو نفسه موضوعًا للرقابة والمطاردة.

لكن الوظيفة تستطيع أن تمنح الإنسان مرتبًا. ولا تستطيع أن تمنحه وطنًا.

وتستطيع أن توفر له مقعدًا. ولا تستطيع أن تعيد إليه الجمهور الذي كان وجوده جزءًا من معنى الكتابة.

لذلك لا أرى السنوات الأخيرة في الآستانة مجرد فصل أخير هادئ في حياة ثائر متعب.

أراها نوعًا آخر من المنفى.

منفى الصوت بعيدًا عن آذانه التي عرفته.

وكان النديم، حتى في هذا المكان، عاجزًا عن تعلم الصمت.

كتب.

وخاصم.

ودخل في معارك.

وظلت الكلمة، إلى آخر الطريق، طريقته في إثبات أنه ما زال موجودًا.

ثم مات. وهنا بدأت الحكاية الأكثر غموضًا.

يعدد جرجي زيدان مؤلفات النديم الضائعة، ويتوقف أمام عمل مذهل.

ديوان شعر يقترب من عشرة آلاف بيت.

ثم يضيف عبارة لا تزال تطاردني منذ قرأتها:

«وهو الآن محجور عليه في الآستانة».

عشرة آلاف بيت.

ليست أوراقًا قليلة سقطت من ملف. ولا قصيدة نسيها ناشر.

إنها عمر أدبي كامل تقريبًا.

ومع ذلك، لا نعرف اليوم أين انتهى.

وحدها عبارة «محجور عليه» تكفي لفتح عشرات الأبواب.

من حجر عليه؟ ولماذا؟ وأين وضع؟ وهل كان الحجر إجراءً رسميًا؟ وهل بقي الديوان كاملًا؟ وأين ذهبت أوراقه بعد ذلك؟

لا أملك حتى الآن وثيقة تسمح لي بإجابة قاطعة.

ولن أملأ فراغ الوثيقة بخيال جميل.

لكن المفاجأة أن جرجي زيدان لم يكن الخيط الوحيد.

هناك شهادة أخرى أكثر قربًا من أسرة النديم.

رشيد رضا سجّل لقاءه في الإسكندرية بالسيد عبد الفتاح النديم، شقيق عبد الله.

وأهداه عبد الفتاح الجزء الأول من «سلافة النديم».

ثم أخبره بما هو أهم.

قال إن كتب أخيه لم تعد من الآستانة، وإنها كانت عند الشيخ محمد ظافر، وإنها لم تسلم إليه بسبب صدور أمر بفحصها.

هنا تتغير المسألة.

لم نعد أمام جملة منفردة في كتاب.

لدينا طريقان مختلفان يصلان إلى المكان نفسه.

جرجي زيدان يقول إن ديوانًا ضخمًا كان «محجورًا عليه في الآستانة».

وشقيق النديم يقول، في الرواية التي نقلها رشيد رضا، إن كتب أخيه بقيت هناك ولم تسلم بسبب أمر بفحصها.

لا أقول إن الروايتين تتحدثان بالضرورة عن الأوراق نفسها.

ولا أقول إننا عرفنا الآن أين توجد.

لكن من الصعب أن نمر على هذا التقاطع وكأنه مصادفة لا تستحق التحقيق.

والأكثر إثارة أن الحكاية بدأت بأب يحاول إنقاذ كتب ابنه، وانتهت بأخ يحاول استعادتها.

الأب وضعها في ثلاثة صناديق. فضاعت في الطريق.

والأخ طلبها من الآستانة. فلم تعد.

أب في أول الحكاية.

وأخ في آخرها.

وبينهما رجل تفرقت أوراقه كما تفرق وطنه.

عندها فقط أدركت أن العبارة التي نكررها عن «فكر عبد الله النديم» تحتاج إلى قدر من التواضع.

فنحن لا نعرف كل فكره.

نحن نعرف ما نجا من فكره.

بعضه نجا من الماء. وبعضه من المطاردة. وبعضه جمعه شقيقه عبد الفتاح وصديقه محمود واصف في «سلافة النديم».

أما بعضه الآخر فلا نعرف إن كان قد ضاع إلى الأبد، أم أنه لا يزال نائمًا في ملف أو خزانة أو فهرس تحت اسم لم نبحث عنه جيدًا.

وقد ذكر زيدان نفسه أن جامعي «السلافة» لم تصل إليهما من رسائله الأدبية إلا أربع عشرة رسالة، بعد جهد طويل.

لهذا تغير معنى رحلتي.

بدأتها أبحث عن قبر عبد الله النديم.

والآن أجدني أبحث عن عبد الله النديم نفسه.

عن الرجل الذي لم يصل إلينا كاملًا.

عن أوراقه. عن سجل الفحص. عن أثر الشيخ محمد ظافر في هذه الحكاية. عن ملفات المطبوعات. وعن واحد وعشرين كتابًا كتبها رجل كان يهرب من السلطة، فيما كانت أفكاره ترفض الهرب.

وبين ثلاثة صناديق ابتلعها النيل...

وكتب بقيت في الآستانة...

وديوان من عشرة آلاف بيت اختفى أثره...

أشعر أن حملة «مئة وثلاثون عامًا والنديم منفيًا» اكتسبت أمامي معنى جديدًا.

فإعادة النديم إلى وطنه لا تعني فقط أن نبحث عن قبره.

ولا أن ننقل رفاته، إذا ثبت مكانها وأمكن ذلك.

هناك عودة أخرى ربما تكون أهم.

أن نعيد إلى مصر ما نستطيع العثور عليه من عقله.

أن نبحث عن الكتاب قبل أن نكتب عنه.

وعن الورقة قبل أن نبني عليها الرواية.

وعن صوته، قبل أن نتحدث باسمه.

فالمنفى الذي بدأ بإبعاد الرجل عن وطنه، لم يكتفِ بالرجل.

امتد إلى قبره. وإلى أوراقه. وإلى كتبه. وإلى صوته. وإلى أجزاء من ذاكرته.

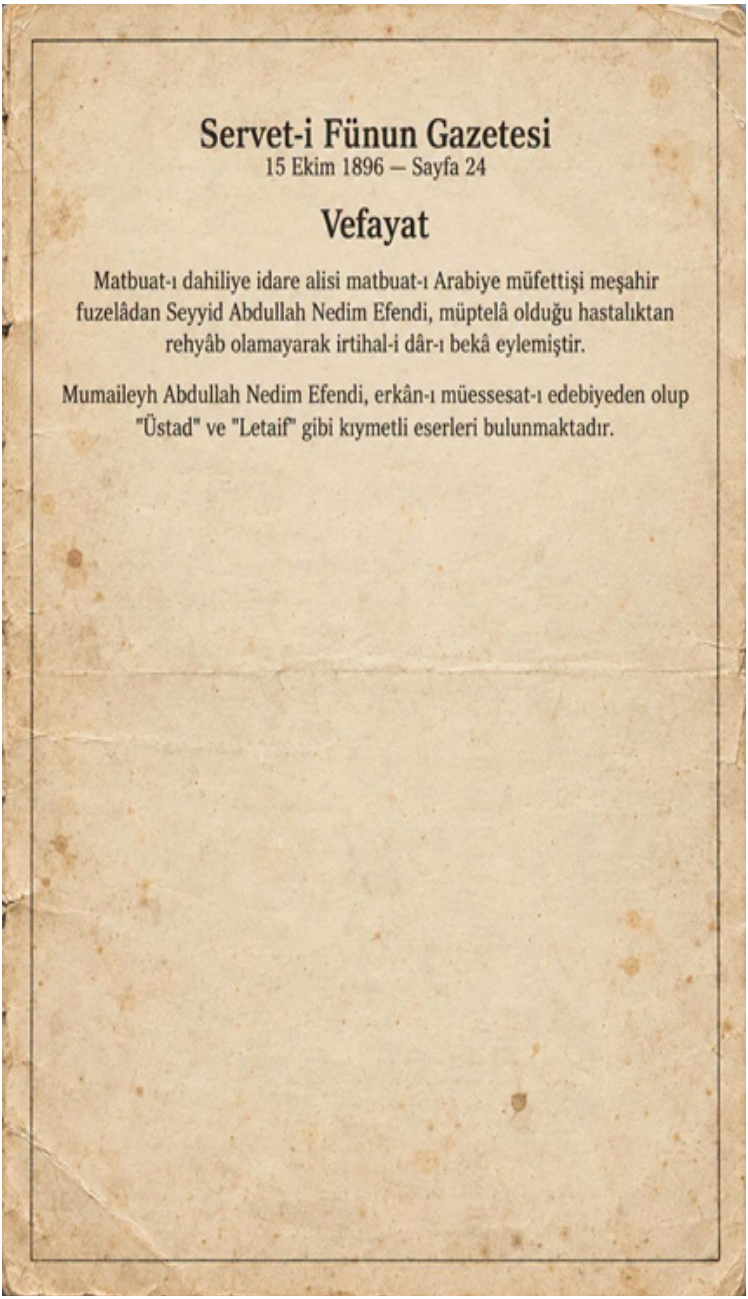
وبعد مئة وثلاثين عامًا، ربما أصبح واجبنا ألا نكتفي برثاء ما ضاع، بل أن نذهب وراء ما لم نتأكد بعد أنه ضاع.

فربما لم تختف أوراق عبد الله النديم كلها.

وربما لم يبتلعها الزمن كما ابتلع النيل صناديقه الأولى.

ربما بقي منها شيء، في درج أو ملف أو خزانة قديمة...

ينتظر فقط أن نناديه باسمه الصحيح.



Servet-i Fünun Gazetesi

15 Ekim 1896 — Sayfa 24

Vefayat

Matbuat-ı dahiliye idare alisi matbuat-ı Arabiye müfettişi meşahir fuzelâdan Seyyid Abdullah Nedim Efendi, müptelâ olduğu hastalıktan rehyâb olamayarak irtihal-i dâr-ı bekâ eylemiştir.

Mumaileyh Abdullah Nedim Efendi, erkân-ı müessesat-ı edebiyeden olup "Üstad" ve "Letaif" gibi kıymetli eserleri bulunmaktadır.

السيد عبد الله نديم

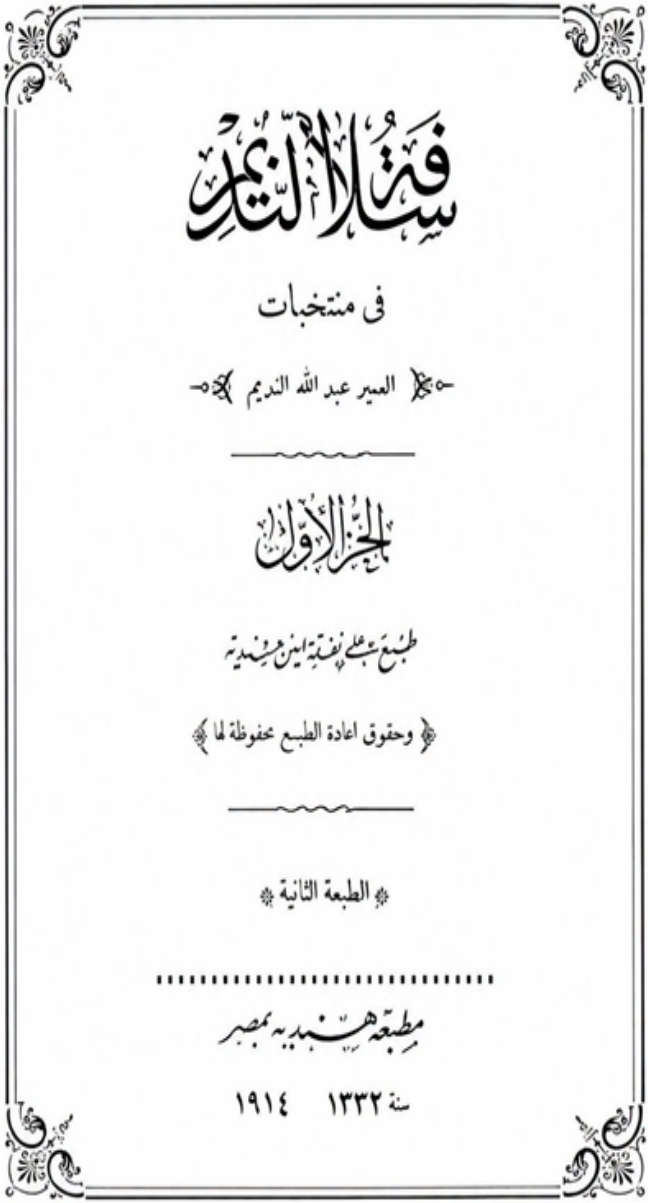
تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر – الجزء الثاني

قد لخصنا ترجمة المرحوم السيد عبد الله نديم من سيرة مطولة بقلم حضرة صديقه الوفي أحمد أفندي سمير.

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا، وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت، وروايتا الوطن والعرب، ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدي جامعي السلافة منها إلا إلى أربع عشرة رسالة بعد السعي الكثير ومكابدة العناء الجزيل، وكان ويكون، وواحد وعشرون كتابًا في فنون مختلفة، قطع لأجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الأقلام، منها ديوان شعر يحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت، وهو الآن محجور عليه في الآستانة، ومنها النخلة في الرحلة، والاحتفاء في الاختفاء، والشرك في المشترك، وكتاب في المترادفات، وآخر في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الأصول، والفرائد في العقائد، واللآلئ والدرر في فوائح السور، والبديع في مدح الشفيع، وأمثال العرب، وغير ذلك.

وقد فُقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقًا أو ضياعًا أو اغتيالًا، على أن شقيقه عبد الفتاح أفندي نديم وصديقه محمود أفندي واصف قد عُنيا في جمع ما تيسر من ذلك في كتاب سماه سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله نديم.

جرجي زيدان – نص من الترجمة المتداولة رقمياً



سلافة العصر

في منتخبات

العصر عبد الله النديم

الجزء الأول

طبع على نفقة امين هنديه

وحقوق اعادة الطبع محفوظة لها

الطبعة الثانية

مطبعة هنديه بمصر

سنة ١٣٣٢ ١٩١٤

وثيقة عثمانية معاصرة

خبر وفاة عبد الله النديم في «ثروت فنون»

«مفتش المطبوعات العربية السيد عبد الله نديم أفندي توفي بعد مرضه.»

تُفيد صفحة العدد بأن النديم كان يشغل وظيفة مفتش المطبوعات العربية عند وفاته.

15 أكتوبر 1896

المصدر: مجلة ثروت فنون، العدد 292، صفحة 24

بطاقة توثيقية فعادة التصميم من نص مصدر أصلي وليست صورة ممسوحة للوثيقة

(7) خبر غير سار.. لكننا لن نيأس

وصلتني منذ قليل، رسالة مباشرة من الباحثة التركية الدكتورة توبا روهنجيز أزاكلي، صاحبة الدراسة الأكاديمية المهمة عن شواهد مقبرة يحيى أفندي في إسطنبول، ردًا على رسالتي إليها في إطار البحث المتواصل عن رقم قبر عبد الله النديم.

الخبر الأول في رسالتها لم يكن سارًا.

فقد أكدت أن شاهد القبر الذي نبحث عنه ليس بين الشواهد التي تناولتها في أطروحتها، وأنها -كما فهمت من رسالتي إليها- تحققت بالفعل من ذلك.

لكن الرسالة حملت في داخلها خيطًا آخر أراه مهما.

تقول الدكتورة توبا إنها ما زالت تحتفظ حتى اليوم بقراءات جميع النقوش التي كانت في مقبرة يحيى أفندي سنة 2008، وأن هذه القراءات الشواهد التي لم تدخل في العينة التي تضمنتها اطروحتها لنيل درجه الماجستير موجودة لديها لكن في ملاحظات كتبتها بخط يدها.

وأوضحت أن مسح هذه الملاحظات كلها ضوئيًا يحتاج وقتًا طويلًا، نسبياً.

ثم أضافت ما أعاد إليّ بعض الأمل:

قالت: إن المعلومات التفصيلية التي أرسلتها لها جعلت البحث أسهل، وإنها ستعود إلى ملاحظاتها وتبحث في الأمر، وأنا ممتن لها بطبيعة الحال على هذا الاهتمام والاستعداد.

وأقول : ان غياب شاهد النديم عن الشواهد التي دخلت أطروحتها لا يعني أن اسمه غير موجود في بقية القراءات التي سجلتها للمقبرة قبل نحو ثمانية عشر عامًا.

ولهذا فالباب لم يغلق.

بل ربما ضاق قليلًا، وفي الوقت نفسه أخاطب جهات تركية رسمية أخرى معنية بالمقبرة والأوقاف والسجلات والأرشيف، بحثًا عن أي رقم أو دفتر أو وثيقة أو صورة تقودنا إلى موضع عبد الله النديم على وجه اليقين.

لن أسبق الوثيقة.

ولن أنسب إليه قبرًا لا يثبت بالدليل.

لكننا لن نيأس.

فليس من المقبول بالنسبة لي أن يظل عبد الله النديم منفيًا في حياته وفي مماته معًا.

هذا الرجل عاش جزءًا من حياته مطاردًا بعيدًا عن وطنه، ومات في الآستانة، ومضت قرابة مئة وثلاثين سنة وما زال موضع مرقده نفسه غائبًا عنا.

وأرى أن الوصول إلى قبره وتوثيقه ليس نهاية الرحلة.

بل هو الخطوة الأولى نحو بحث إمكان إعادة رفاته إلى مصر، بالطريق القانوني والرسمي اللائق، إذا توافرت الموافقات اللازمة.

إلى الأرض التي أحبها.

وكتب لها.

وطورد من أجلها.

وحملها معه في غربته.

لقد طال المنفى بما يكفي.

وإذا كان الوطن قد لفظ عبد الله النديم حيًا، فلا ينبغي أن يتركه غريبًا بعد موته.

والبحث مستمر.

(مرفق: صورة الرسالة الأصلية الموجهة إليّ من الدكتورة توبا روهنجيز أزاكلي)

Abdullah el-Nadim'in mezarının yerini tespit etmede yardım talebi Inbox ×

Dr Ayman Nour Mon, Sep 28, 3:41 PM (1 day ago)

Sayın Dr. Öğr. Üyesi Tuba Ruhengiz Azaklı, 2009 tarihli "Hat ve Süsleme Sanatları ve Mimari Üslup Bakımından Yahya Efendi Kabristanı Mezar Taşları" başlıklı çal

tuba.ruhengiz@kocaeli.edu.tr 10:21 AM (8 hours ago)

to me

Merhabalar,

Tezimde konu aldığım mezar taşları içerisinde bahsettiğiniz mezartaşı yok. Anladığım kadarıyla siz de kontrol ettiniz. Kabristanda 2008 yılında sağlam vaziyette olan tüm kitabelerin okunuşu elimde mevcut fakat elle kağıda yazılmış notlar halindeler. Yardımcı olmak isterim fakat bu notları taramak takdir edersiniz ki epey vakit alacak. İnanın benzer taleplerle tarafıma çok sayıda ulaşan oluyor. Fakat siz epey detaylı bilgi verdiğiniz için araştırmak biraz daha mümkün. Bu sebeple vakit bulduğumda bakacağım inşallah.

Saygılarımla,
Dr. Öğr. Üy. Tuba Ruhengiz Azaklı

28 Eylül 2026 15:41, "Dr Ayman Nour" <ayman.aymannour@gmail.com> yazdı:



(8) أوراق المنفى عبد الله النديم

وعد عودة المنفيين... بعد حين

ليست الغربة أن تقيم في مدينة تجهل دروبها، بل أن تعرف الطريق إلى بيتك ولا تملك القدرة على أن تسلكه.

أن يظل اسم بلدك مثبتًا في جواز سفرك، فيما يغدو الجواز نفسه عديم الجدوى لأن السلطات ترفض أن تحدده.

أن تحمل مفتاح بيت، ولا تدري أهو ما يزال قائمًا، أم أن الشمع الأحمر لا يزال يختم بابه ظلمًا وعسفًا.

عندها لا يعود المنفى مجرد مكان، بل يصبح علاقة مختلة بين الإنسان ووطنه؛

يرحل المرء لا كراهيةً لترابه، بل لأن السياسة ضاقت به حتى لم تترك له فوق أرضه متسعًا للتنفس.

في إسطنبول وفرنسا ولندن وباريس ونيويورك وواشنطن، تمتد خريطة المنفيين العرب حتى تكاد تشكل وطنًا موازيًا.

مصريون غادروا طلبًا للعمل أو فرارًا من القمع، وسوريون ويمنيون وليبيون وفلسطينيون وسودانيون حملوا بيوتهم في حقائبهم، ثم اكتشفوا أن الغياب الذي حسبوه عابرًا يلتهم أعوام العمر.

تتعدد البلدان والحكايات، لكن الوجع واحد:

إنسان لم يطلب من دولته معجزة، بل سقفًا آمنًا، وقانونًا لا يعاقبه على رأيه، ومدرسةً ومستشفى و3 وجبات بشرف وكرامة تحفظ له الحد الأدنى من معنى الوطن.

وحين يعجز وطن زاخر بالناس والأرض والثروة عن توفير هذا الحد الأدنى، فالمشكلة لا تكمن في شح الموارد وحده،

بل في السياسة حين تنقلب السلطة من وسيلة لخدمة الإنسان إلى غاية قائمة بذاتها، ويغدو الكرسي أثمن من البلد الذي يجلس صاحبه فوقه.

عندها تبدأ المأساة قبل انطلاق الرصاصة الأولى: حين يصبح المختلف عدوًا، والدولة غنيمة، والقوة بديلًا عن الحوار، والخوف بديلًا عن الشرعية.

ومن قلب هذه المأساة يطل عبد الله النديم، قريبًا منا رغم انقضاء 130 عامًا على رحيله، لا بوصفه أثرًا من الماضي، بل شاهدًا على منفى لا يزال يتكرر، وعلى وطن يظل وعدًا بالعودة.



(9) النديم في الوثائق العثمانية 130 عامًا عبد الله النديم... مصر كانت تدفع للمنفي 2500 قرش شهريًا

بعض الرجال يرحلون مرة واحدة، وبعضهم يظل رحيله يتكرر كلما فتحنا صندوقًا قديمًا، أو قلبنا ورقة منسية، أو عثرنا على اسمه في ملف ظن أصحابه أن الزمن أغلقه. ومع عبد الله النديم أشعر أنني لا أبحث عن رجل رحل منذ مئة وثلاثين عامًا، بقدر ما أتتبع أثر رجل ما زال يتحرك بين الأوراق. مرة أجده في صحيفة، ومرة في رسالة، ومرة في قبر نحاول الوصول إليه، وهذه المرة وجدته في مكان أكثر قسوة ودلالة: في الأوراق التي كانت الدولة تكتبها عنه. (المرفق رقم 1)

في الحلقة الماضية كنت أبحث عن أوراق عبد الله النديم، واليوم وجدت أوراقًا أخرى كانت هي التي تبحث عنه. أوراق لا تسأل عمّا كتب بقدر ما تسأل: أين هو؟ ومع من يتحدث؟ وإلى أين يتحرك؟ وماذا يمكن أن يفعل قلمه إذا تُرك له شيء من الحرية؟ كأن السلطة لم تكن تخشى الرجل وحده، بل كانت تخشى الاحتمال الذي يمثله. وهكذا ظهر النديم في دفاتر الإدارة العثمانية، لا أديبًا

وخطيبًا فقط، بل رجلًا تتحرك خلفه عين الدولة.

يافا... المنفى مرتين. تبدأ الرحلة الموثقة سنة 1891، عندما انتهت سنوات اختفاء النديم بعد الثورة العرابية، فقُبض عليه وسُمح له بمغادرة مصر إلى يافا. ثم عاد إلى مصر سنة 1892 في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، وأصدر صحيفة «الأستاذ»، قبل أن تعيده كتاباته وصدامه السياسي إلى المنفى مرة أخرى في يافا سنة 1893. أي أننا لسنا أمام إقامة واحدة في يافا، بل أمام منفيين يفصل بينهما عام عاد فيه النديم إلى مصر وإلى الصحافة وإلى المشاغبة التي لم يعرف غيرها.

وهنا تدخل الوثائق العثمانية إلى الحكاية. في الرابع من يوليو 1893 تظهر الوثيقة BOA, İ.HUS 17/58، وفي الخامس من يوليو 1893 تظهر الوثيقة BOA, DH.ŞFR 159/34. وتكشف المراسلات أن سلطات يافا والقدس كانت تناقش السماح للنديم بالإقامة، وتخشى عودته إلى النشر السياسي. كما تشير إلى مخصص قدره ألفان وخمسمئة قرش تدفعه الحكومة المصرية، في سياق إقامة ارتبطت كذلك باقتراح إنجليزي. لم يكن الرجل يحمل

بندقيـة، ولـم يكـن وراءه جيـش أو خزينـة. كان يحمـل قلمًـا وذاكـرة وصوتًـا يعـرف الطريـق إلـى النـاس. وربمـا لهـذا بـدا أخطـر فـي عيـن السـلطة مـن كثيريـن يحملـون الـسلاح. (المرفـق رقـم 4)

وفـي اليـوم نفسـه، الخامـس مـن يوليـو 1893، تظهـر الوثيقـة الثالثـة: BOA, Y.A.HUS 277/54. وهـي التـي تربطهـا الدراسـة بقـرار إخـراج النديـم مـن الأراضـي العثمانيـة تحـت رقابـة الشـرطة وإبعـاده مـن يافـا إلـى الإسـكندرية. وهكـذا تتجمـع الوثائـق الـثلاث فـي يوميـن فقـط: İ.HUS 17/58 فـي الرابـع مـن يوليـو، و DH.ŞFR 159/34 وY.A.HUS 277/54 فـي الخامـس مـن يوليـو 1893. بهـذا يسـتقيم الزمـن وتسـتقيم معـه الرحلـة: يافـا الأولـى سـنة 1891، العـودة إلـى مصـر سـنة 1892، يافـا الثانيـة سـنة 1893، ثـم الإسـكندرية. (المرفـق رقم4)

وتوقفـت طـويلًا أمـام هـذه الأوراق. فالسـلطة كثيـرًا مـا تخـاف ممـا قـد يحـدث أكثـر ممـا تخـاف ممـا حـدث بالفعـل. يكفـي أحيانًـا أن يكـون للرجـل صـوت مسـموع حتـى يصبـح احتمـال كلامـه ملفًـا، واحتمـال كتابتـه خطـرًا، واحتمـال وصولـه إلـى النـاس شـأنًا يسـتحق المـراسلات والمراقبـة. وهنـا يبـدو المنفـى

أكبر من مجرد مدينة يرسل إليها رجل؛ إنه محاولة لإبعاد الفكرة عن جمهورها، مع أن الأفكار، لسوء حظ السلطات، لا تحتاج دائمًا إلى جواز سفر.

الإسكندرية... باب يُغلق وآخر يُفتح. بعد يافا عاد النديم إلى الإسكندرية، وهناك ظهر في طريقه غازي أحمد مختار باشا، أحد أبرز رجال الدولة العثمانية ومندوبها السامي في مصر. وتذكر المصادر التركية أن اللقاء انتهى بخطاب توصية حمله النديم إلى الآستانة، حيث عُيّن مفتشًا للمطبوعات. وما زلنا هنا نفرق بين ما وصلنا وما نبحث عنه: لدينا توثيق لخطاب التوصية ولدوره، لكن أصل الخطاب نفسه لم يقع بين أيدينا بعد. وأمانة البحث عندي لا تقل أهمية عن متعة العثور على الوثيقة؛ أن تقول «لم أصل إليها بعد» أشرف من أن تملأ فراغ التاريخ بما تتمناه. (المرفق رقم2)

ثم تقفز الرحلة عامين إلى الأمام. في الثالث عشر من سبتمبر 1895 يظهر اسم عبد الله النديم في ملف آخر من أرشيف يلدز يحمل الرقم BOA, Y.EE 128/140. الدراسة التي أعدها الباحث التركي يونس أوزغر تنقل ملخص الوثيقة، وهي مذكرة تتناول

جانبًا من أوضاع مصر وشخصياتها السياسية، من اللورد كرومر ومصطفى فهمي إلى أحمد مظلوم وديكران باشا، ثم يرد فيها اسم النديم والإشارة إلى دفاعه عن حقوق السلطنة والدين وانتقاله إلى الأراضي العثمانية. (المرفقان رقم 3 ورقم 5)

وهنا تصبح المسافة بين يافا ويلدز أكبر بكثير من المسافة على الخريطة. ففي يوليو 1893 كان النديم اسمًا داخل أوراق القلق والمراقبة والإبعاد. وفي سبتمبر 1895 صار الاسم حاضرًا في أوراق القصر بلغة سياسية مختلفة. لا يعني ذلك أن الدولة تبدلت فجأة، ولا أن الثائر العرابي تحول إلى رجل للقصر، ولا ينبغي أن نحمل الوثيقة أكثر مما تحتمل. لكنه يكشف أن صورة الرجل في عين السلطة لم تكن ثابتة؛ كانت تتبدل بتبدل المكان والسياسة واللحظة، بينما ظل هو عصيًا على التصنيف السهل.

فالوثائق الرسمية مهمة، لكنها لا ترى الإنسان كاملًا. الشرطة ترى حركة، والإدارة ترى ملفًا، والقصر يرى موقفًا. أما الإنسان نفسه فيظل أوسع من هذه الزوايا جميعًا. لهذا لا أقرأ هذه الأوراق بحثًا عن تاريخ النديم وحده، بل بحثًا عن تلك المسافة القديمة والمتجددة بين الإنسان والملف الذي تكتبه عنه السلطة. كم مرة تحول معارض إلى رقم؟ وكم مرة اختُصرت حياة كاملة في تقرير؟ وكم مرة اطمأنت سلطة لأنها عرفت أين يقيم الرجل، بينما لم تعرف أبدًا أين تقيم فكرته؟

بعد عام تقريبًا من وثيقة يلدز، رحل عبد الله النديم في إسطنبول في أكتوبر 1896. مضت مئة وثلاثون عامًا، وبقيت أوراق المراقبة وقرارات الإبعاد وتقارير القصر، لكن أسماء كثيرين ممن كتبوها ذهبت، بينما بقي اسم الرجل الذي كانت تلك الأوراق كلها تدور حوله. تلك واحدة من مفارقات التاريخ التي أحبها: قد تملك السلطة الملف، لكن صاحب الملف قد يملك المستقبل.

من يافا إلى يلدز، عاش عبد الله النديم بين عين الشرطة وعين القصر، لكنني كلما قرأت هذه الأوراق شعرت أن هناك عينًا ثالثة كانت أقوى منهما: عينه هو، التي ظلت تنظر إلى مصر من المنفى. الجغرافيا استطاعت أن تبعد الجسد، لكنها لم تستطع أن تنفي الفكرة. والملفات استطاعت أن تحاصر خطوات الرجل، لكنها لم تستطع أن تحاصر ما تركه وراءه.

المرفقات:

المرفق رقم 1 – صورة عبد الله النديم

https://commons.wikimedia.org/wiki/File:%D4%B1%D5%A2%D5%A4%D5%A1%D5%AC%D5%AC%D5%A1%D5%B0_%D5%A1%D5%AC-%D5%86%D5%A1%D5%A4%D5%AB%D5%B4.jpg

المرفق رقم 2 – صورة غازي أحمد مختار باشا

https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Gazi-ahmed-muhtar-pasa-1.jpg

المرفق رقم 3 – صورة تاريخية ليلدز في إسطنبول

https://commons.wikimedia.org/wiki/File:-CLEMENT%281895%29_pg219_Yildiz_Kiosk%2C_with_Mosque_and_Pavilion.jpg

المرفق رقم 4 – الدراسة التركية التي تتضمن وثائق يافا سنة 1893 والإحالات إلى İ.HUS 17/58 و DH.ŞFR 159/34 وY.A.HUS 277/54

https://isamveri.org/pdfdrg/G01020/2020/2020_OZTURKM_DOGANCAY.pdf

المرفق رقم 5 – دراسة يونس أوزغر التي تتضمن الإحالة إلى ملف يلدز BOA, Y.EE 128/140 المؤرخ في 13 سبتمبر 1895

https://makale.isam.org.tr/server/api/core/bitstreams/3ad561c6-8dce-4c1f-9e38-1deba6db55f7/content







(10) آخر تمرد للنديم في الآستانة

حين تتحول الكلمات إلى مسامير... وتصبح السخرية سلاحًا في مواجهة النفوذ

للمنفى حيل كثيرة، لكن عبد الله النديم لم يكن تلميذًا جيدًا في مدرسة الصمت. كلما ابتعد عن مصر، اقتربت هي من قلمه. وكلما ظن الذين أرادوا إسكاته أن المسافة ستطفئ صوته، عثر على طريقة أخرى ليقول ما يريد.

هذه المرة لم يكن منبرًا في ميدان، ولا صحيفة يقرأها المصريون في القاهرة، بل كتابًا حمل عنوانًا غريبًا وقاسيًا، هو «المسامير».

لم تكن المسامير هذه المرة من حديد، بل من كلمات. ولم تكن موجهة إلى جدار، بل إلى رجل استطاع أن يقترب من مركز السلطة والنفوذ، حتى أصبح أحد أكثر الشخصيات إثارة للجدل في البلاط العثماني.

إنه الشيخ أبو الهدى الصيادي، الذي جعل منه النديم هدفًا لواحد من أعنف نصوصه الساخرة.

توقفت طويلًا أمام هذه المفارقة.

رجل حارب بقلمه من أجل تحرير وطنه من الاستبداد والتبعية، ثم حمل إلى منفاه معاركه القديمة، وفتح معركة جديدة مع رجل من رجال النفوذ في دولة استضافته.

لماذا اختار النديم هذا الرجل بالذات؟ وهل كانت الخصومة شخصية، أم سياسية، أم كان الشخص في نظر النديم تجسيدًا لنوع من السلطة التي تستمد قوتها من الاقتراب من الحاكم؟

لا أزعم أنني امتلكت إجابات قاطعة عن هذه الأسئلة. لكنني أرى أن فهم طبيعة تلك الخصومة يكشف جانبًا مهمًا من شخصية النديم، بل ومن طبيعة الصراع بين الكلمة والسلطة في أزمنة مختلفة.

لم يكن أبو الهدى مجرد عالم دين معروف، بل كان صاحب حضور ونفوذ واسع في محيط السلطان عبد الحميد الثاني، وهو ما جعل خصومه يرون فيه صورة لتحالف النفوذ الديني مع السلطة السياسية.

أما النديم، فلم يكن من النوع الذي يتجنب الاقتراب من أصحاب النفوذ لمجرد أنهم أصحاب نفوذ.

وكانت السخرية إحدى أدواته القديمة، التي عرفها المصريون في مقالاته وصحفه وخطبه، قبل أن يعرفوها في «المسامير».

يروي أحمد أمين، في حديثه عن النديم، أن الكتاب بلغ من القسوة في هجائه لأبي الهدى الصيادي حدًا جعله يتحفظ على أسلوبه، رغم إعجابه بشجاعة صاحبه.

وهنا أجد نفسي أمام سؤال يتجاوز النديم وعصره.

هل يصبح كل ما يكتبه المعارض صحيحًا لأنه يعارض السلطة؟ وهل يكفي فساد بعض أصحاب النفوذ حتى تصبح كل وسيلة لمهاجمتهم مقبولة؟

أظن أن الإجابة ينبغي أن تكون بالنفي.

فالحرية لا تمنح صاحبها عصمة من الخطأ، والمعارضة ليست شهادة دائمة بحسن النية، كما أن الشجاعة لا تجعل التجريح فضيلة.

يمكن أن نعجب بجرأة النديم، وأن نختلف مع بعض أدواته. ويمكن أن ندافع عن حقه في الكتابة، دون أن نوافق على كل ما كتب.

فالكاتب الذي يستحق الاحترام ليس من نغفر له كل أخطائه لأنه يشبهنا، بل من نستطيع أن نحترم شجاعته دون أن نتنازل عن حقنا في نقده.

ومن أغرب ما يروى عن «المسامير» أن الكتاب لم يُنشر في حياة النديم، وأن أبا الهدى علم بوجوده، فأبلغ السلطان أن بين صفحاته ما يمس مقامه أيضًا.

وبحسب الرواية التي نقلها أحمد أمين، جرى البحث عن المخطوط، لكن أحد المتصلين بالنديم وجمال الدين الأفغاني، ويدعى جورج كرتشي، استطاع إخفاءه ونقله إلى مصر، حيث ظهر مطبوعًا بعد ذلك.

توقفت عند هذه الرواية لأنها تستحق أكثر من مجرد الحكاية.

فالنص الذي تخشى السلطة ظهوره يتحول أحيانًا إلى شيء أكبر من حجمه الحقيقي، ويصبح

البحث عنه دليلًا على مقدار الخوف من الكلمة، قبل أن يكون دليلًا على قوتها.

لكن الحكاية تترك لنا أيضًا أسئلة أخرى.

أين المخطوط الأصلي؟ وما مدى مطابقة النسخة المطبوعة لما كتبه النديم؟ وهل وصلت إلينا الكلمات كما خرجت من قلمه، أم مرت بأيدٍ أضافت وحذفت وبدلت؟

هذه ليست أسئلة جانبية بالنسبة لمن يبحث عن تراث رجل جعل الكتابة جزءًا من حياته السياسية.

إنها جزء من الأمانة الواجبة تجاه التاريخ.

في تقديري، لم تكن معركة «المسامير» مجرد خصومة بين أديب مصري وشيخ نافذ في الدولة العثمانية.

كانت، في جانب منها، مواجهة بين صورتين للكلمة.

كلمة تسعى إلى الاقتراب من السلطة حتى تكتسب قوتها، وكلمة تحاول أن تحتفظ بمسافة

منهـا حتـى لا تفقـد حريتهـا.

ومـع ذلـك، لا أريـد أن أضـع الرجليـن داخـل حكـم أخلاقـي مبسـط، فيـه طـرف يحتكـر الحقيقـة وطـرف يحتكـر الخطـأ.

فالتاريـخ أكثـر تعقيـدًا من هـذه القسـمة، والإنصاف يقتضـي أن نفهـم أشـخاصه فـي سـياق زمانهـم، لا أن نعيـد محاكمتهـم وفـق انطباعاتنـا وحدهـا.

ومـا يشـغلني أكثـر مـن تفاصيـل هـذه الخصومـة، هـو مـا تكشـفه عـن علاقـة المعارضـة بالسـلطة، وعـن المعنـى الحقيقـي للاسـتقلال.

فليـس كل مـن يقـف بعيـدًا عـن الحاكـم مسـتقلًا بالضـرورة، ولا كل مـن يقتـرب منـه فاقـدًا لاسـتقلاله.

المعيـار الأصـدق هـو قـدرة الإنسـان علـى أن يقـول مـا يعتقـده، وأن يرفـض مـا لا يقتنـع بـه، وأن يحتفـظ لنفسـه بحـق الاخـتلاف، حتـى لـو دفـع ثمـن ذلـك مـن راحتـه أو مكانتـه أو أمنـه.

ولعـل مأسـاة كثيـر مـن المثقفيـن أنهـم يبـدأون حياتهـم مدافعيـن عـن حريـة الكلمـة، ثـم يضيقـون بهـا حيـن تخـرج مـن أفـواه مخالفيهـم.

أما المأساة الأكبر فهي أن نطالب بحقوقنا عندما نكون خارج السلطة، ثم ننساها عندما نصبح قريبين منها.

لم يكن النديم ملاكًا سياسيًا ولا أديبًا معصومًا، ولم تكن كل معاركه جديرة بالإعجاب بالقدر نفسه.

لكنه كان إنسانًا يصعب عليه أن يصمت، حتى عندما كان الصمت أيسر الطرق.

وهذه الخصلة وحدها لا تصنع بطولة كاملة، لكنها تكشف عن طبع لا يمكن تجاهله في سيرة الرجل.

لقد تغيرت المدن التي عاش فيها، وتغيرت الظروف والأسماء والوجوه، لكن شيئًا في داخله ظل يقاوم الاستسلام.

ولست أدري إن كان النديم، لو عاد اليوم، سيكتب «المسامير» باللغة نفسها، أم كان سيجد أن بعض الكلمات أكثر قدرة على كشف الباطل حين تتحرر من الغضب.

لكنني أعرف أن قيمة الكلمة لا تقاس بمقدار ما تجرح خصمها، بل بمقدار ما تكشف من حقيقة، وتفتح من وعي، وتترك من أثر.

فليس كل قلم حادٍّ قلمًا حرًا، وليس كل كلام موجع كلامًا صادقًا.

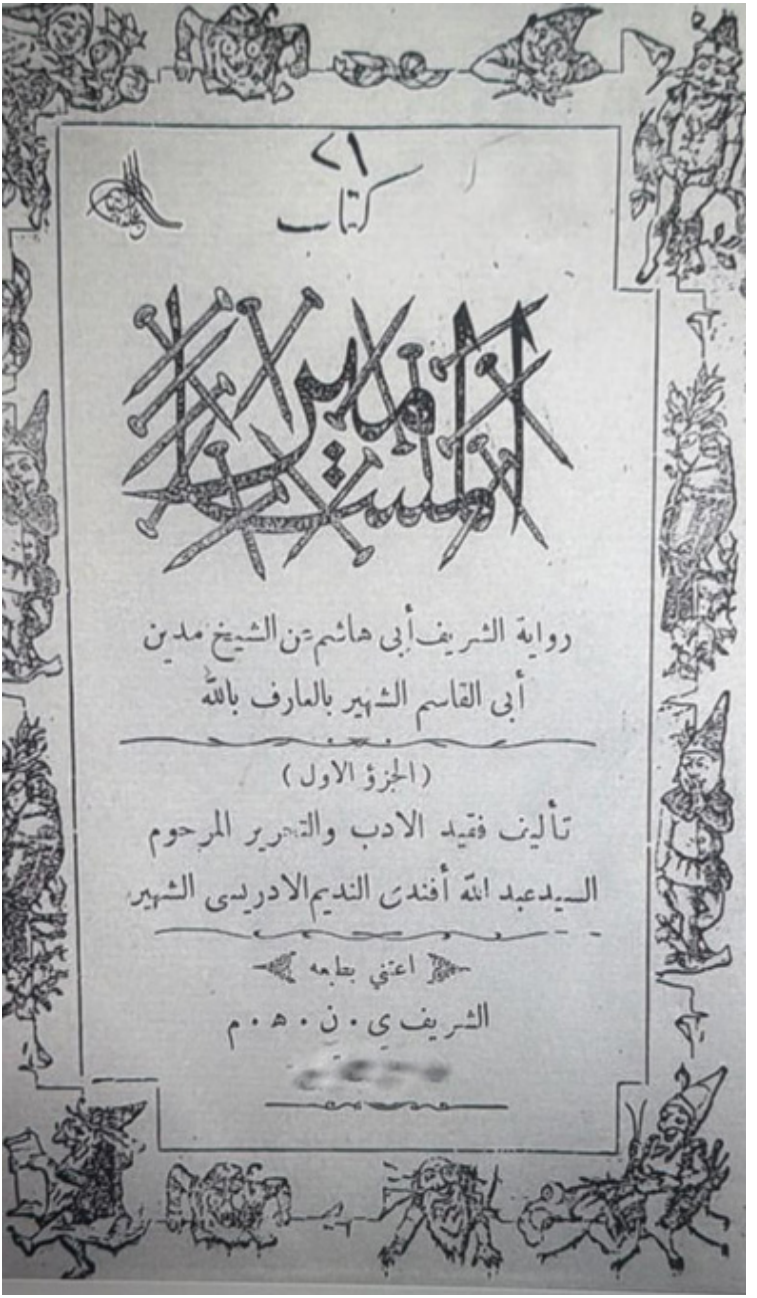
وهكذا أخرج من قراءة «المسامير» بانطباع يتجاوز الكتاب وصاحبه وخصومه.

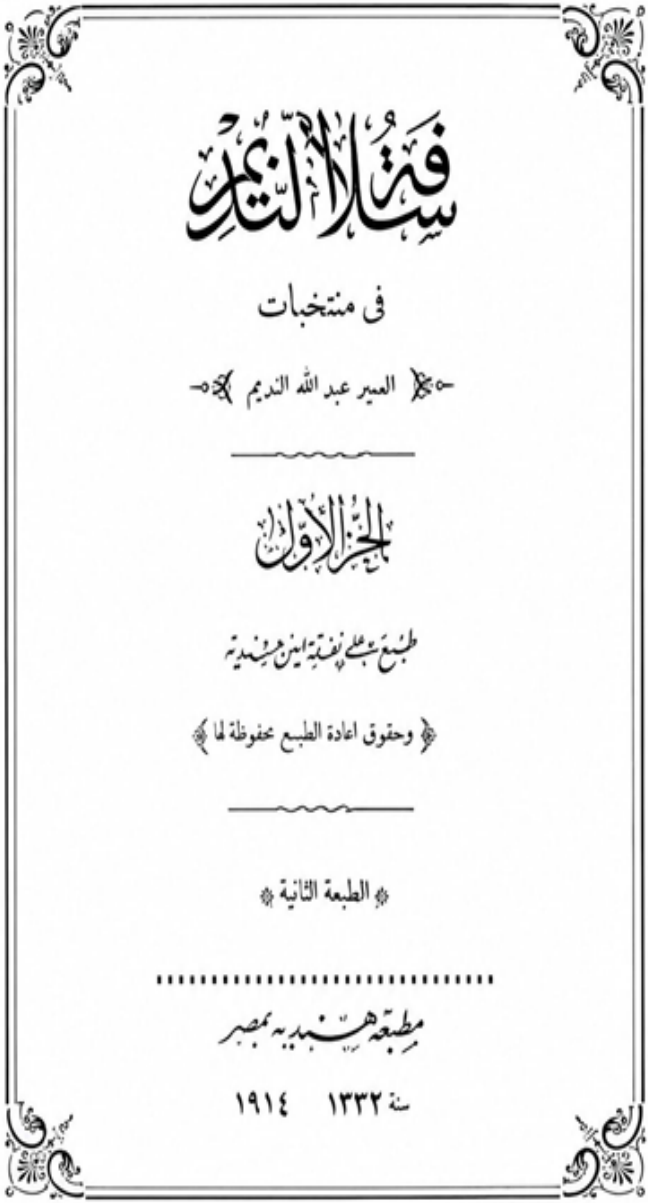
إن أشد ما تحتاج إليه المعارضة ليس أن تتعلم كيف تجرح السلطة، بل كيف تختلف معها دون أن تتخلى عن قيمها.

وإن أشد ما تحتاج إليه السلطة ليس أن تتعلم كيف تمنع النقد، بل كيف تحتمله، وربما تتعلم منه.

وبين هذين المعنيين تبقى تجربة عبد الله النديم جديرة بالقراءة، لا باعتبارها حكاية رجل انتصر دائمًا، بل باعتبارها حكاية رجل ظل يقاوم، ويخطئ، ويصيب، ويجرب، حتى آخر الطريق.

فالمسـاميرالتـي تبقـى فـي الذاكـرة ليسـت دائمًـا تلـك التـي دُقّـت فـي الخصـوم، بـل تلـك التـي أيقظت الضمائـر مـن نومهـا الطويـل.


كتاب
رواية الشريف أبي هاشم عن الشيخ مدين
أبي القاسم الشهير بالعارف بالله
(الجزؤ الاول)
تأليف فقيد الادب والتحرير المرحوم
السيد عبد الله أفندى النديم الادريسى الشهير
اعتنى بطبعه
الشريف ي . ن . ه . م



سلافة العصر

في منتخبات

العصر عبد الله النديم

الجزء الأول

طبع على نفقة امين هنديه

وحقوق اعادة الطبع محفوظة لها

الطبعة الثانية

مطبعة هنديه بمصر

سنة ١٣٣٢ ١٩١٤

(11) علمتني رحلتي وراء النديم أن التفاصيل الصغيرة قد تخفي أسرار التاريخ

أخشى أن تكون المفاجأة في نهاية هذه الرحلة أن شاهد قبر عبد الله النديم لم يكن بعيدًا عنا كما تصورنا، وأن صورته ربما مرت أمام أعين كثيرين، دون أن ينتبه أحد إلى ما تحمله من اسم، أو تاريخ، أو سر.

ربما التقطت عدسة أحد الباحثين صورة للحجر الذي نبحث عنه، ثم أودعها صاحبها بين مئات الصور، ومضت السنوات دون أن يسأل أحد عن الاسم المكتوب عليها.

وقد يكون هذا الاحتمال بعيدًا عن الحقيقة. لكن البحث الجاد لا يبدأ دائمًا من يقين، بل من سؤال يستحق الاختبار.

في زيارتي لمقبرة يحيى أفندي في بشكتاش، أدركت أن البحث بين الأحجار القديمة ليس مجرد مسألة تعرف على الأسماء.

فهناك أحجار تآكلت بعض كلماتها، وأخرى تخفي النباتات أجزاء منها، وثالثة لا تكشف

الكتابة المنقوشة عليها إلا من زاوية معينة، أو تحت ضوء يبرز ما كاد الزمن يمحوه.

ولذلك لم تعد الصورة بالنسبة إلي مجرد وسيلة لتوثيق المكان، بل أصبحت وثيقة قد تحتفظ بتفصيل عجزت العين عن ملاحظته أثناء الزيارة.

بل ربما احتفظت صورة قديمة بما لم يعد موجودًا على الحجر اليوم.

وهنا بدأت أفكر في أرشيف الذين سبقونا إلى المكان.

لم يكن الباحثون الأتراك غافلين عن القيمة التاريخية لهذه المقبرة.

فقد شهدت أعمالًا علمية واسعة لتوثيق شواهدها، وقراءة نقوشها، ودراسة خطوطها وزخارفها، وتحويل الأحجار من مجرد آثار صامتة إلى مادة تاريخية قابلة للفحص والمقارنة.

ومن بين الأسماء التي استوقفتني الباحثة التركية الدكتورة توبا روهنكيز أزاكلي، صاحبة الدراسات المتعلقة بخطوط الشواهد وتوقيعات الخطاطين.

وكذلك الباحث الدكتور شفاعتين دنيز، الذي شارك مع فريق بحثي في تصوير آلاف الشواهد وقراءتها.

ومن اللافت أن هذا العمل الأخير ساعد، وفق ما نشرته وكالة الأناضول عام 2018، في التعرف على قبور تسعة عشر جنديًا ارتبطت وفاتهم بالحرب العثمانية اليونانية عام 1897.

إنها تجربة تكشف أن الحجر الذي يبدو مجهولًا لعشرات السنين قد يستعيد اسمه وقصته حين تتوافر أدوات القراءة الصحيحة.

توقفت أمام هذا المعنى طويلًا.

فإذا كان البحث العلمي قد نجح في التعرف على شواهد ظلت مجهولة، فلماذا لا نعيد فحص الصور بحثًا عن شاهد عبد الله النديم؟

لا أقول إن هذه الدراسات تتضمن صورته، ولا أدعي أن الباحثين عثروا عليه.

لكنني أقول إن لدينا سؤالًا محددًا، وأرشيفات تستحق المراجعة، وخبرة علمية تستطيع أن تجعل البحث أقل اعتمادًا على المصادفة.

وما أتمناه ليس أن نعثر على صورة تشبه ما نبحث عنه، بل أن نجد دليلًا يسمح لنا بالقول إن ما نراه هو بالفعل ما نبحث عنه.

الصورة التاريخية لا تكذب بالضرورة، لكنها قد تُفهم على غير حقيقتها.

قد نقرأ اسمًا على حجر دون أن ننتبه إلى أنه اسم صاحبه أو أبيه أو أحد أقاربه.

وقد نخلط بين تاريخ الوفاة وتاريخ تجديد الشاهد.

وقد يظهر في أسفل النقش اسم خطاط الحجر، فيظنه من لا يعرف تقاليد النقوش العثمانية اسم المدفون.

وقد يكون الشاهد صحيحًا، لكن موضعه تغير خلال أعمال ترميم أو إعادة تنظيم للمكان.

لهذا فإن صورة واحدة، مهما بدت واضحة، لا تكفي وحدها لإعلان اكتشاف تاريخي.

نحتاج إلى قراءة النص كاملًا، وفهم طبيعة النقش، ومقارنة التاريخ والأسماء، ثم ربط الصورة بالمكان الذي التقطت فيه.

وأتصور أن الخطوة الأكثر جدية في هذه المرحلة هي الحصول على الصور الأصلية بجودتها الكاملة، مع ما يصاحبها من بيانات وتوصيفات.

ثم إعداد فهرس للأسماء التي يمكن أن تكون مرتبطة بالنديم، مع مراعاة اختلاف طرق كتابة اسمه بالعربية والعثمانية.

فالرجل الذي نعرفه باسم عبد الله النديم قد يظهر في سجل قديم بصيغة مختلفة، أو بلقب وظيفي، أو بنسب مختصر لا يلتفت إليه من يبحث عن الاسم المتداول وحده.

ومن الضروري أيضًا مقارنة الصورة بتاريخ التقاطها، ورقم الشاهد إن كان مسجلًا، والموضع الذي كان يشغله في المقبرة.

وبعد ذلك تأتي الخطوة الحاسمة، وهي المطابقة بين ما تقوله الصورة وما تحفظه سجلات الدفن أو الوثائق الأخرى.

فالاكتشاف الحقيقي لا يقوم على تشابه الأسماء، وإنما على اجتماع القرائن واستبعاد الاحتمالات المتعارضة.

ولعل أكثر ما أخشاه في هذه الرحلة ليس أن نفشل في العثور على القبر، بل أن نتعجل إعلان العثور عليه.

فالخطأ حين يصدر عن فرد قد ينتهي بانتهاء الحكاية، لكنه إذا تحول إلى معلومة منشورة، ثم انتقل إلى الكتب والمقالات والصور، يصبح تصحيحه أشد صعوبة.

وما أكثر الأخطاء التي بدأت بتخمين صغير، ثم اكتسبت بمرور الوقت سلطة الحقيقة لمجرد تكرارها.

لهذا أجد أن من حق النديم علينا أن نتواضع أمام تاريخ الرجل، وألا نستعجل كتابة الفصل الأخير من رحلة لم تكتمل وثائقها بعد.

في عصر أصبحت فيه الكاميرات قادرة على تسجيل آلاف الصور، تبدو المفارقة أن الوصول إلى الحقيقة لم يصبح بالضرورة أسهل.

فوفرة الصور لا تعني وفرة المعرفة.

وقد تملك مكتبة آلاف الصفحات دون أن تعرف موضع الحقيقة بينها، كما قد يملك باحث آلاف الصور دون أن ينتبه إلى صورة واحدة تحمل إجابة سؤاله.

إن القيمة ليست في عدد الصور التي نلتقطها، بل في الأسئلة التي نطرحها عليها.

ولذلك فإن الفهرسة العلمية ليست عملًا إداريًا باردًا، وإنما هي أحيانًا الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الذاكرة من الضياع.

أتمنى أن يتحول هذا السؤال إلى تعاون بحثي مصري تركي، يجمع بين معرفة الباحثين الأتراك بالخطوط والسجلات العثمانية، ومعرفة الباحثين المصريين بسيرة النديم وأسمائه وصلاته وتاريخ وفاته.

ليس المطلوب أن نجتمع حول نتيجة نتمناها، بل حول منهج يقود إلى نتيجة نستطيع الدفاع عنها.

وإذا أثبت الفحص أن الشاهد غير موجود في الصور المتاحة، فهذه ليست هزيمة.

إنها معرفة جديدة تمنعنا من تكرار الطريق نفسه، وتدفعنا إلى البحث في أرشيف آخر.

فالنتيجة السلبية الموثقة أفضل كثيرًا من اكتشاف إيجابي لا يقوم على دليل.

أفكر أحيانًا في رجل حمل كاميرته إلى المقبرة قبل سنوات، ووقف أمام حجر قديم، والتقط له صورة، ثم مضى دون أن يعرف أن وراء الاسم حكاية وطن كامل.

وربما نكون نحن الآن أمام تلك الصورة دون أن ندرك ما تخفيه.

لكنني لا أريد أن أسبق الحقيقة، ولا أن أحوّل الاحتمال إلى خبر، أو الأمل إلى يقين.

ما أريده أن تتاح هذه الصور للفحص، وأن تُقرأ قراءة علمية، وأن نعرف ما إذا كانت تحتفظ بأثر من آثار الرجل الذي نبحث عنه.

فقد تكون المفاجأة أننا لا نحتاج إلى صورة جديدة للقبر، بل إلى عين جديدة تقرأ صورة قديمة.

وربما تكون هذه واحدًا من أهم الدروس التي علمتني إياها رحلتي وراء عبد الله النديم.

أن البحث عن التاريخ لا يكتمل بمجرد الوصول إلى المكان، وأن رؤية الأشياء ليست دائمًا هي معرفتها.

فكم من شاهد رأيناه ولم نقرأه، وكم من اسم قرأناه ولم نعرف صاحبه، وكم من صورة احتفظت بأسرار لم نطرح عليها السؤال الصحيح بعد.

وإذا كان الطريق إلى النديم ما زال مفتوحًا، فإنني لا أريد أن أختصره في مصادفة سعيدة، بل أن أقطعه بما يستحقه من صبر وعلم وتواضع.

فليس المهم أن نعثر على صورة نظن أنها له، بل أن نعثر على الدليل الذي يجعلنا نعرف أنها له.





(12) **البحث عن النديم**...

رسالة جديدة من الدكتورة توبا

تنقلنا إلى «فناء الأولياء»...

قبل الذكرى المئة والثلاثين لرحيل عبد الله النديم بنحو ثمانٍ وأربعين ساعة، وصلتني اليوم الرسالة الثانية من الأكاديمية التركية الدكتورة توبا روهنكيز أزاكلي، بعد رسالة أولى كانت قد فتحت أمامنا هذا الخيط البحثي ودفعتنا إلى انتظار ما قد تكشفه مراجعتها لأوراقها القديمة. قرأت الرسالة الثانية أكثر من مرة. لا لأنها تحمل الخبر الذي أنتظره منذ بدأت هذه الرحلة، فهي لا تقول إننا وجدنا القبر، ولا تحمل رقم شاهد أو صورة حجر نستطيع أن نكتب تحتها بثقة: هنا يرقد عبد الله النديم. لكنها فعلت شيئًا مهمًا. نقلت البحث خطوة من الورق إلى الأرض.

كتبت لي الدكتورة توبا في رسالتها الثانية أنها راجعت بصورة أولية ما لديها من وثائق وقراءات تتصل بشاهد قبر عبد الله نديم بك، ولم تصل حتى الآن إلى معلومة حاسمة. وأضافت أن بعض

النصوص القديمة الموجودة لديها غير مكتمل، وأنها بدأت تعيد مراجعة أوراقها منذ البداية، هذه المرة بتفصيل أكبر، وكأن الأوراق القديمة استيقظت فجأة على سؤال لم تكن تعرف قبل سنوات أنها ستُسأل عنه.

ثم جاءت الجملة التي فتحت أمامنا بابًا جديدًا. قالت إنها استشارت أستاذًا واسع المعرفة بمقبرة يحيى أفندي، ولديه أرشيف كبير يتعلق بها. الرجل لم يكن قد سمع باسم عبد الله النديم، لكنه بحكم معرفته بالمكان رجّح أن يكون الشاهد، إن كان ما يزال قائمًا، في الجزء الداخلي المعروف باسم «صوفة الأولياء».

والأهم أنها لم تكتف بهذا الاحتمال. كتبت أنها ستذهب، في أول فرصة، إلى المقبرة لتفحص هذه المنطقة بنفسها، ثم أضافت في نهاية رسالتها عبارة إنسانية بسيطة كان لها عندي وقع خاص: إنها ستكون سعيدة جدًا إذا عُثر عليه.

نحن إذن، قبل ثمانٍ وأربعين ساعة فقط من الذكرى المئة والثلاثين لوفاة النديم، لا نملك إعلانًا

عـن اكتشـاف القبـر. لكننـا نملـك لأول مـرة اتجاهًـا ميدانيًـا أكثـر تحديـدًا. لـم يعـد الأمـر مجـرد: ابحثـوا فـي يحيـى أفنـدي. أصبـح لدينـا جـزء بعينـه داخـل هذا العالـم الكبيـر مـن الأحجـار يسـتحق الفحـص.

أتوقـف هنـا عمـدًا. لا أعـرف أن قبـر النديـم موجـود فـي «صوفـة الأوليـاء». ولا تعـرف الدكتـورة توبـا ذلـك. ولا يوجـد حتـى هـذه اللحظـة حجـر موثـق يحمـل الاسـم، ولا رقـم قبـر يمكننـي أن أضعـه أمـام القـارئ. لدينـا فقـط فرضيـة بحثيـة طرحهـا شـخص يعـرف المقبـرة وأرشـيفها جيـدًا. والفـرق بيـن «قـد يكـون» و«وجدنـاه» هـو، فـي الحقيقـة، كل الفـرق بيـن التحقيـق والأسـطورة.

هـذه مـن اللحظـات التـي يختبـر فيهـا الباحـث نفسـه قبـل أن يختبـر الوثيقـة. لأن الرغبـة فـي الوصـول قـد تصبـح أحيانًـا أقـوى مـن الدليـل. نحـب الرجـل، ونريـد أن نعثـر عليـه، فتغوينـا أي إشـارة صغيـرة لكـي نحولهـا إلـى يقيـن. لكـن الوفـاء لعبـد الله النديـم لا يكـون بـأن نصنـع لـه قبـرًا. الوفـاء الحقيقـي أن نرفـض أن ننسـب إليـه حجـرًا حتـى يقـول الحجر نفسـه اسـمه.

وتكتسب رسالة توبا الثانية أهميتها من أن صاحبتها ليست زائرة عابرة للمقبرة، ولا باحثة نقلت عن كتاب. هي واحدة ممن عاشوا طويلًا مع شواهد يحيى أفندي، وقرأوا نقوشها ودرسوا خطوطها وزخارفها، وتعاملوا مع الحجر بوصفه وثيقة لها لغتها وقواعدها وأسرارها.

نحن نبحث اليوم عن اسم «عبد الله النديم». لكن الحجر العثماني قد لا يقول الاسم بالطريقة التي نحفظها. ربما كتب «السيد عبد الله نديم أفندي». وربما «عبد الله بن مصباح». وربما ذكر وظيفة الرجل أو نسبه. وربما بدأ النقش بدعاء طويل، وانتهى الاسم في سطر أصابه الكسر أو المحو. الاسم الذي نعثر عليه في ثانية على شاشة الهاتف، قد يحتاج إلى أيام كي نستخرجه من حجر عمره مئة وثلاثون عامًا.

وهناك في رسالة توبا خيط آخر لا يقل أهمية عن المكان المحتمل. قالت إن لديها نصوصًا وقراءات قديمة غير مكتملة، وإنها تعيد الآن فحصها. وهنا يصبح القديم أحيانًا أغلى من الجديد. فملاحظة كتبتها باحثة قبل سنوات طويلة قد تحفظ قراءة

لحجر قبل ترميمه أو تحركه أو تآكل بعض حروفه.

وربما تكون المفارقة أن المعلومة التي نبحث عنها اليوم لم تكن ذات أهمية كبيرة لموضوع دراستها يوم كتبتها. قد يكون اسم النديم ظل في هامش دفتر، أو بجوار رقم شاهد، أو تحت صورة لم تدخل البحث المنشور. التاريخ، مثل البشر، يعرف أحيانًا كيف يخفي أهم أخباره في الهوامش.

لهذا أصبح البحث يتحرك الآن بين ذاكرتين. ذاكرة مكتوبة تحتفظ بها توبا في أوراقها القديمة، وذاكرة مصورة يحتفظ بها باحثون آخرون ممن صوروا وقرأوا آلاف الشواهد في يحيى أفندي. وإذا ظهر الاسم في واحدة، فسنحتاج إلى الأخرى لكي نختبره. هكذا فقط تضيق مساحة الاحتمال، ويبدأ الدليل في بناء نفسه.

و«صوفة الأولياء» نفسها تحتاج إلى بعض التوضيح. فلفظ «الصوفة» هنا ليس الأريكة التي يفهمها القارئ العربي اليوم، بل تسمية مكانية عثمانية تشير إلى مساحة أو جزء داخل الحظيرة والمجمع. وبالتالي، نحن لا نتحدث عن قبر قريب

من ضريح معروف بالضرورة، بل عن نطاق داخلي قد لا يمر به من يبحث في المسارات المعتادة للمقبرة.

وقد يفسر ذلك، إن صح الاحتمال، لماذا بحث آخرون قبلنا ولم يصلوا إليه. فزيارة المقبرة شيء، ومعرفة طبقاتها الداخلية ومساراتها القديمة شيء آخر. وفي مكان تجاوز عدد شواهده الألفين، يمكن أن تكون المسافة بين العثور والضياع بضعة أمتار فقط.

لكنني لا أريد أن أحب هذه الفرضية أكثر مما يسمح به الدليل. قد تذهب توبا إلى «صوفة الأولياء» ولا تجد شيئًا. وإذا حدث ذلك، فلن أعتبره فشلًا. سنكون قد أغلقنا بابًا كان من الضروري أن نفتحه. وفي التحقيق الحقيقي، استبعاد المكان معلومة، كما أن العثور عليه معلومة.

أما إذا ظهر حجر محتمل، فلن تكون الفرحة هي الخطوة التالية. سيكون الشك. سنقرأ الاسم. ونراجع التاريخ. ونبحث عن رقم الشاهد. ونعود إلى الجرد. ونطلب سجل الدفن إن بقي. ونقارن بصورة

قديمة إن وجدناها. ونفحص احتمال تشابه الأسماء. لأن الحقيقة لا تصبح أكثر حقيقة كلما استعجلناها.

أريد سلسلة كاملة لا تنقطع: حجر. اسم. رقم. سجل. صورة. عندها فقط يمكنني أن أكتب الجملة التي أنتظرها منذ بدأت هذه الرحلة: هنا عبد الله النديم.

منذ أسابيع ونحن نطلب من الورق أن يدلنا على الحجر. فتحنا أوراق يافا. ووصلنا إلى يلدز. وتتبعنا كتب النديم في الآستانة. وسألنا عن الشيخ محمد ظافر. وراجعنا رحلة بلال فضل. وحملة الدكتور عمرو عبد العزيز منير. وشهادة الدكتور عمار علي حسن. وكل طريق كان يعيدنا في النهاية إلى يحيى أفندي.

واليوم يحدث شيء مختلف قليلًا. الرسالة الثانية من توبا لا تعيدنا إلى المقبرة فقط، بل تفتح أمامنا بابًا داخلها. رسالة وصلت قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من ذكرى رحيل النديم، وتقول إن باحثة تعرف المكان ستعود إليه بعين جديدة، وفي يدها اسم واحد فقط تبحث عنه.

لا أحب أن أحمل المصادفة أكثر مما تحتمل، لكن توقيت الرسالة حرّك في داخلي شيئًا يصعب تجاهله. بعد مئة وثلاثين عامًا تقريبًا، وقبل أن نحيي ذكرى وفاة الرجل مرة أخرى، يأتي خيط جديد يقول لنا ببساطة: الرحلة لم تنته بعد.

عبد الله النديم عاش مطاردًا. بدّل منازله وأسماءه وثيابه ومخابئه، وأتعب من كانوا يبحثون عنه حيًا. ثم كأن قبره ورث عنه شيئًا من طبعه، فصار هو الآخر مختبئًا عن العيون. الفارق هذه المرة أننا لا نبحث عنه لكي نقبض عليه. نبحث عنه لكي نعيد إليه اسمه.

سأنتظر زيارة الدكتورة توبا. وسنواصل في الوقت نفسه البحث في الجرد، والصور القديمة، وأرشيفات الشواهد، ودفاتر المقبرة إن استطعنا الوصول إليها. لن نترك خيطًا، ولن نعطي خيطًا أكثر مما يستحق.

أشعر اليوم أن المسافة تقل. ربما لم نقترب بعد من القبر، لكننا اقتربنا من طريقة العثور عليه. وهذه ليست النتيجة نفسها، لكنها ليست قليلة أيضًا.

مئة وثلاثون عامًا مرت بين جنازة عرفت طريقها إلى يحيى أفندي، وبيننا ونحن نحاول اليوم أن نعيد اكتشاف الطريق ذاته. وربما تختصر هذه السنوات كلها يومًا في حجر واحد، واسم واحد، ورقم واحد.

إلى أن يحدث ذلك، سأتمسك بالقاعدة التي بدأت بها هذه الرحلة: لا نستعجل الحقيقة لكي تلحق بالذكرى. فالذكرى يمكن أن تنتظر. أما الحقيقة، فيجب أن تصل كاملة.

(13) في المقابر فجر يوم الذكرى 130

توجهتُ بعد شروق فجر السبت 10 أكتوبر 2026 إلى مقابر «يحيى أفندي»... ليس فقط استمرارًا لرحلة البحث المضنية عن عبد الله النديم، لكن كي نحتفل بذكراه بالقرب منه...

هنا، بين صمت القبور العتيقة وشواهد التاريخ التي يلفّها وقار القرون، جئت أحمل في صدري شوق وطن ووفاء أمة. مئة وثلاثون عامًا مرّت على رحيل خطيب الثورة وعاشق الحرية، وما زال غريبًا في منفاه، نائيًا عن تراب بلاده التي بذل روحه فداءً لكلمتها.

لم نقف اليوم لنوثّق مجرد خطوة في طريق البحث، بل جئنا لنمنحه عهدًا قطعه القلب والضمير: لن يهدأ لنا بال، ولن تستكين لنا خطوة، حتى نصل إلى مرقده الطاهر، وحتى يعود رفاته مكرمًا معززًا ليعانق ثرى مصر التي أحبها وعاش من أجلها ومات محرومًا منها.

سلامٌ على روحك الطاهرة في عليائها يا أستاذ... عهدنا باقٍ، واللقاء في تراب الوطن قريب بإذن الله.

[كلمة من مقابر يحيى أفندي]

في الذكرى الثلاثين بعد المئة لرحيل عبد الله النديم

أقف اليوم هنا... في مقابر يحيى أفندي، قريبًا منك يا عبد الله النديم، وقريبًا من ترابك، لكنني لا أعرف بعد أين أضع يدي على شاهدك، ولا أين أقف لأقول لك: جئناك.

وهذا وحده وجع.

أن أعرف المقبرة، ولا أعرف القبر.

أن أصل إلى المكان، ولا أصل إليك.

أن يكون بيني وبينك تراب هذه الأرض كلها، ثم تضيع منا أمتار قليلة حملت سرك الأخير.

لذلك جئت اليوم لأعتذر.

أعتذر لأن منفاك لم ينته بالموت.

ولأن الغياب امتد مئة وثلاثين عامًا بعد أن صمت صوتك.

ولأن الرجل الذي ملأ مصر كلمةً وصخبًا وحرية، ما زال جسده بعيدًا عن ترابها، بينما بقيت كلماته

فيها أكثر حياة من كثيرين لم يغادروها يومًا.

وأشهد الله من هنا، أمام تراب هذه المقبرة، أنني ما دمت حيًا لن أدخر جهدًا في البحث عنك. عن شاهدك. عن أوراقك. عن آخر أثر تركته هنا.

وسأظل أسعى، ما استطعت، حتى تعود إلى مصر... إلى الأرض التي أحببتها، والوطن الذي دفعت من عمرك وحريتك ومنفاك ثمنًا لحلمه.

ولهذا أعلن اليوم إلغاء ما كان مقررًا من احتفالات في مركز الشرق الثقافي بهذه الذكرى.

لا أستطيع أن أحتفل بك كاملًا، بينما لا تزال رحلتك ناقصة.

سنؤجل احتفالنا إلى اليوم الذي نعثر فيه عليك، ونقف أخيرًا أمام شاهدك، وتبدأ معه رحلة العودة الحقيقية من منفى طال مئة وثلاثين عامًا.

أما اليوم، فأدعو أصدقائي وزملائي وكل محبي عبد الله النديم في مصر إلى المشاركة في الاحتفاء بذكراه في دار الأوبرا المصرية.

لعل صوته يعود اليوم إلى القاهرة...

إلى أن يعود هو.

سلام عليك يا نديم مصر.

سامحنا أن طال الطريق.

وسامح الوطن أن تأخر عنك كل هذا العمر.

لكن انتظرنا قليلًا...

فنحن ما زلنا في الطريق إليك.





(14) النديم في إسطنبول

أوراق المنفى «من النيل إلى البوسفور»

النديم لم يدخل الآستانة فاتحًا، ولا سائحًا، ولا باحثًا عن شهرة جديدة. جاءها وقد ضاقت عليه أرض وطنه، وبعد أن صار قلمه عبئًا على سلطات لا تحتمل ما يقوله.

ثم وجد نفسه في مدينة تتسع للقصور والمكتبات والمطابع، ولا تتسع بالضرورة لرغبة رجل واحد في العودة إلى مصر.

كان عبد الله النديم يعرف قيمة الكلمة جيدًا. فقد دفع من عمره ثمنها قبل أن يصل إلى إسطنبول. وعرف الاختفاء والمطاردة، وعرف أن مقالًا صغيرًا قد يصنع أزمة كبيرة، وأن جريدة قد تغلق لأن صاحبها رفض أن يكتب ما يرضي الحاكم.

ومع ذلك، أصبح في الآستانة مفتشًا للمطبوعات.

لا أعرف على وجه الدقة ما الذي كان يدور في نفسه وهو يؤدي هذه الوظيفة.

ولا أملك سجلًا كاملًا بما فحصه أو أجازه أو اعترض عليه، ولذلك لا أريد أن أختلق له موقفًا

مـن كل كتـاب مـر بيـن يديـه.

لكن المفارقة التاريخية وحدها كافية للتأمل.

رجـل عـرف المنـع، يصبـح قريبًـا مـن أدوات تنظيـم المنـع أو النشـر.

كاتـب عـاش مطـاردًا بسـبب الصحافـة، يعمـل فـي دائـرة تتصـل بالصحافـة.

وثائـر عـارض الاستبـداد، يجـد لنفسـه موضعًـا فـي عاصمـة السـلطان.

وليـس فـي هـذه المفارقـة مـا يجيـز لنـا أن نصـدر عليـه حكمًـا سـهلًا. فحيـاة المنفـي أكثـر تعقيـدًا مـن أحـكام الذيـن لـم يجربـوا المنفـى.

قد يقبل وظيفة ليعيش.

وقد يصادق صاحب نفوذ ليحتمي.

وقـد يقتـرب مـن السـلطة دون أن تصبـح السـلطة وطنـه.

فليـس كل مـن فتـح لـه القصـر بابًـا اسـتطاع أن يفتـح لنفسـه بـاب العـودة إلـى بيتـه.

في الآستانة التقى النديم بجمال الدين الأفغاني، الذي سبق أن عرفه في مصر. وكانت بين الرجلين صلة فكرية وإنسانية تمتد إلى سنوات بعيدة.

ولم تكن إسطنبول مكانًا هادئًا بعيدًا عن الخصومات الفكرية. فقد استمرت خلافات النديم ومعاركه، وارتبطت بعض كتاباته الأخيرة بخصوم في دوائر النفوذ، ومنهم الشيخ أبو الهدى الصيادي.

ومن هذه المرحلة خرجت الكتابات المعروفة باسم «المسامير».

وهو عنوان يكاد يلخص جانبًا من شخصية النديم. فقد كان يعرف أن السخرية قد تكون أحيانًا أشد وقعًا من الموعظة، وأن العبارة القصيرة تستطيع أن تترك في خصمها أثرًا لا تتركه صفحات من الجدل.

كان النديم بعيدًا عن القاهرة.

لكنه لم يصبح بعيدًا عن نفسه.

غير أن المفارقة الأكثر إيلامًا لم تظهر إلا بعد موته.

فقد نقل رشيد رضا عن عبد الفتاح النديم، شقيق عبد الله، أن كتب أخيه بقيت في الآستانة عند الشيخ ظافر، وأنها لم تُسلَّم إليه بسبب أمر صدر بفحصها.

هنا تتوقف الكلمات قليلًا أمام معنى لا يحتاج إلى مبالغة.

الرجل الذي عمل مفتشًا للمطبوعات، مات وبقيت بعض كتبه، وفق شهادة أخيه، تنتظر الفحص.

ولا أعرف هل كان ذلك الأمر إجراءً إداريًا عاديًا، أم متصلًا بطبيعة الكتابات، أم نتيجة نزاع على حيازتها.

لم نجد أصل الأمر حتى الآن.

ولا يجوز أن نجعل من الرواية وحدها دليلًا على مصادرة رسمية.

لكن الذي نعرفه أن شقيقه كان يبحث عن أوراقه بعد موته، وأن استعادتها لم تكن أمرًا يسيرًا.

تأملت طويلًا هذه الصورة.

عبد الفتاح في الإسكندرية.

والكتب في الآستانة.

وصاحبها في التراب.

وبين الشقيق والأوراق مسافة من البحر، ومسافة أخرى من الإجراءات والسلطات والأشخاص.

كأن المنفى لم ينته بموت صاحبه، بل انتقل من جسده إلى ما تركه وراءه.

وأظن أن هذا أكثر ما يستحق البحث.

فلو وجدنا قبر النديم غدًا، سنكون قد عرفنا أين انتهت حياته.

أما إذا وجدنا أوراقه، فقد نعرف شيئًا جديدًا عن الحياة نفسها.

ربما نقرأ نصًا يوضح موقفًا غامضًا.

أو نجد صفحة تكشف ظروف كتابته في الآستانة.

أو نستعيد كتابًا منسوبًا إليه لم نعرف نسخته الكاملة.

لهـذا لا أريـد أن يصبـح البحـث عـن عبـد الله النديم سـباقًا إلـى العثـور علـى حجر.

الحجر مهم. بالغ الأهمية.

لكن الرجل أوسع من قبره.

والعـودة إلـى مصـر لا تكـون بالرفـات وحدهـا، بـل بمـا يمكـن اسـتعادته مـن فكـره أيضًـا.

أريـد أن نعـرف كيـف عـاش أيامـه الأخيـرة فـي الآسـتانة، بعيـدًا عـن الروايـات التـي تكتفـي بأنـه نُفـي ثـم مـات.

كيف عمل.

وماذا كتب.

وماذا نشر.

وما الذي لم ينشره.

ومن احتفظ بأوراقه.

وأين ذهبت بعد رحيله.

هذه ليست تفاصيل هامشية في سيرة أديب.

إنهـا جـزء مـن تاريـخ الصحافـة المصريـة، ومـن تاريـخ العلاقـة القديمـة بيـن الكلمـة والسـلطة، وبيـن الحريـة والمنفـى.

وبعـد مئـة وثلاثيـن عامًـا، لا أريـد أن أحاكـم النديم علـى خيـارات لـم أعـش ظروفهـا، ولا أن أجعـل منـه قديسًـا لا يخطـئ.

أريده أن يعود كما كان.

إنسانًا يضعف ويقاوم.

يقترب ويبتعد.

يختلف ويخاصم.

ويظـل، وسـط ذلـك كلـه، صاحـب صـوت لا يشـبه غيـره.

كلمـا قـرأت عـن سـنواته فـي الآسـتانة، اقتنعـت بـأن أكثـر مـا نحتاجـه ليـس كتابـة نهايـة جديـدة لحياتـه، بـل اسـتكمال الصفحـات الناقصـة منهـا.

فقد عرفنا منذ زمن طويل أين توقفت أنفاسه.

لكننا لم نعرف بعد أين انتهت جميع كلماته.

وهـذا هـو البحـث الـذي ينبغـي أن يسـتمر، حتـى بعـد العثـور علـى القبـر.

(15) قيامة النديم

من النيل للبوسفور ثلاث موتات للنديم

كلما مضيت في رحلة البحث عن عبد الله النديم، ازددت اقتناعًا بأن بعض الرجال لا يموتون مرة واحدة.

هناك موت يوقف القلب. وهناك موت آخر يبدأ يوم يُقتلع الإنسان من وطنه. وهناك موت ثالث يحدث حين تضيع أوراقه، وتتبعثر كتبه، ويصبح ما كتبه وما تركه موزعًا بين الرفوف والبيوت والذاكرة.

ولهذا أقول اليوم إن عبد الله النديم مات ثلاث مرات.

مات أول مرة يوم خرج من مصر قسرًا.

فالمنفى ليس انتقالًا من مكان إلى مكان.

هو اقتلاع من الإيقاع الطبيعي للحياة.

هو أن يصبح الوطن خبرًا يأتي من بعيد، وأن تتحول الأماكن التي صنعتك إلى ذاكرة، وأن تستمر الأيام هناك من دونك.

المنفي شخص لا يفقد الأرض فقط.

يفقد حقه البسيط في أن يكون حاضرًا في التفاصيل.

في الأفراح الصغيرة، في العزاءات، في الوجوه التي تكبر فتراها في الصور فلا تعرفها.

في البيوت والشوارع التي تتغير ملامحها. في الأحياء القديمة التي كان يعرفها ولا يستطيع السير فيها إلا في أحلامه.

النديم، الذي ملأ مصر صوتًا وكلمةً وحضورًا، انتهى به الطريق بعيدًا عنها.

عاش في الآستانة، وعمل فيها، وعرف رجالها، وظل يحمل قلمه معه. لكن المدينة، مهما أحسنت استقباله، لم تكن الأرض التي أراد أن تنتهي إليها رحلته.

(وهذه كانت موتته الأولى).

أما الثانية، فكانت أشد وجعًا.

حين اشتد عليه المرض، تحركت أمه وأخوه إليه. بعد انتظار طال الإذن لهما بالسفر.

كان النديم يريد أن يراها. وكان يكفيه، في لحظة الضعف الأخيرة، أن تصل اليد التي عرف منها أول معنى للأمان.

لكنها وصلت بعد أن سبقها الموت.

وهنا المنفى أقسى من المسافة.

أن تكون الأم في الطريق.

وأن يكون الابن في انتظاره الأخير.

ثم لا يلتقي الطريقان.

لم يكن النديم وقتها بحاجة إلى وطن كامل. كان يحتاج وجه أمه فقط.

ولم يصل.

(وهذه عندي كانت موتته الثانية).

أما الثالثة، فلم تقع في لحظة.

بدأت بعد دفنه.

بدأت يوم تفرقت أوراقه، واختلطت طرق كتبه، وضاعت أجزاء من تراثه، وظل بعض ما كتبه عالقًا بين روايات قديمة ومكتبات وأشخاص لا نعرف

إلى أين انتهت حيازتهم له.

وفي هذا المعنى تحديدًا، وصلتني رسالة د. وصفي عاشور أبو زيد، التي أضافت إلى رحلة البحث بابًا جديدًا.

لفت د. وصفي إلى أن البحث عن رفات النديم، على أهميته الإنسانية والوجدانية والتاريخية، لا ينبغي أن يطغى على ما قد يكون أكثر بقاءً وأثرًا: البحث عن أوراقه وكتاباته وكتبه التي لم تصل إلينا.

ثم ذهب أبعد من الفكرة.

عرض مشكورًا أن يتطوع بخبرته العلمية للمشاركة في تحقيق ما قد يظهر من أوراق أو نصوص أو مخطوطات، ومراجعة نسبتها، وتواريخها، وسياقات كتابتها أو نشرها، والتمييز بين ما سبق نشره وما قد يرى النور لأول مرة.

وهنا شعرت أن معنى «عودة النديم» اتسع فجأة.

فالنديم لا يعود بجسده فقط.

يعود حين نعرف أين يرقد.

ويعود حين نجد أوراقه.

ويعود حين نحقق نصًا مفقودًا.

ويعود حين نرد إليه كتابًا نُسب إلى غيره، أو ننزع عنه كتابًا لم يكتبه.

ويعود حين نضع بين أيدي الأجيال ما كتبه الرجل فعلًا، لا ما قالت الذاكرة إنه كتبه.

ولذلك لم يعد مشروعنا من اليوم بحثًا عن قبر فقط .

صار بحثًا عن القبر والأثر معًا.

عن الحجر والورق.

عن الجسد والفكرة.

عن موضعه في يحيى أفندي، وعن موضع كلماته في الأرشيف.

لدينا خيوط تخص القبر: دراسة د. توبا روحنجيز أزاكلي، وملاحظاتها القديمة، ومسح الشواهد، وما كتبه بلال فضل، وما فعله د. عمرو عبد العزيز منير، وما سجله د. عمار علي حسن.

ولدينا خيوط تخص الأوراق: شهادة رشيد رضا عن كتب بقيت في الآستانة، وما نُقل عن الشيخ محمد ظافر، وخيط «المسامير»، وأعمال مثل «كان ويكون» وغيرها مما يحتاج إلى مراجعة ببليوغرافية وتحقيق هادئ.

لكن كل هذه الخيوط تحتاج إلى شيء واحد: عمل جماعي جاد.

ولهذا أجد أن أفضل ما يمكن أن نفعله بعد الذكرى ليس أن نطوي الملف، بل أن نفتحه على نطاق أوسع.

وأدعو من هنا الباحثين المصريين والعرب والأتراك، والمتخصصين في التاريخ العثماني، وتاريخ الصحافة، وتحقيق المخطوطات، والأرشيفات، وشواهد القبور، إلى التطوع العلمي في هذا المشروع.

من يملك وثيقة فليشاركها.

ومن يعرف أرشيفًا فليدلنا عليه.

ومن يستطيع قراءة شاهد عثماني فليساعد.

ومن يملك خبرة في التحقيق فليضعها في خدمة النص.

ومن يعرف طريقًا إلى سجلات يحيى أفندي، أو أوراق الشيخ محمد ظافر، أو أي مكتبة احتفظت بجزء من تراث النديم، فليفتح معنا هذا الباب.

لا نريد حملة عاطفية.

نريد مشروع استعادة علمي.

استعادة للرجل كما كان.

لا كما نحب أن نتخيله.

وربما كانت هذه هي الدلالة الأعمق للموتة الثالثة.

أن تضيع أوراق الإنسان بعد موته، فكأن جزءًا من حياته يظل معلقًا بين الوجود والعدم.

وأن نعثر عليها، ونحققها، ونعيدها إلى القراء، هو في حد ذاته نوع من القيامة الثقافية.

ولهذا، فإن عودة النديم إلى مصر، إن جاءت يومًا، يجب ألا تكون تابوتًا فقط.

نريده أن يعود ومعه كتاب.

ومخطوطة.

ومقال.

ووصف أدق لحياته.

وحقيقة أكثر نقاءً من الأسطورة.

منذ أن بدأت رحلة البحث عن النديم،

وأنا أتعلم كل يوم درس جديد في الحياة في المنفى وربما هذا يفسر للبعض حرصي في السنوات الأخيرة أن ألملم أوراقي المبعثرة في كتب مدونة ومطبوعة ومتداولة.

نريد للنديم أن يعود كاملًا قدر ما يسمح به الزمن.

وربما لهذا بدأ يتشكل أمامي من اليوم مشروع أكبر من الحلقات والمقالات المتفرقة.

كتاب يجمع هذه الرحلة كلها.

عنوانه المبدئي:

(من النيل إلى البوسفور

البحث عن النديم في إسطنبول)

ليس كتابًا يروي سيرة عبد الله النديم من جديد بالمعنى التقليدي.

بل كتاب عن البحث عنه بعد مئة وثلاثين عامًا.

عن القبر الذي لم نجد رقمه بعد.

وعن الأوراق التي لم نعرف مصيرها كله.

وعن الذين بحثوا قبلي.

وعن الذين يساعدون الآن.

وعن الأخطاء التي صححناها.

وعن الصور التي لم نقبلها بلا دليل.

وعن الروايات التي أحببناها، ثم رفضنا أن نجعلها حقائق قبل التثبت.

وعن رجل بدأ رحلته عند النيل، وانتهى جسده عند البوسفور، بينما ظل صوته معلقًا بين الضفتين.

وإذا كان النديم قد مات ثلاث مرات، فلا ينبغي أن نسمح له أن يموت رابعة بالنسيان.

بل لعل واجبنا من الآن هو العكس.

أن نمنحه أكثر من عودة.

عودة إلى الأرض.

عودة إلى الكتب.

عودة إلى الذاكرة.

عودة إلى القارئ.

[فلا يعود عبد الله النديم جسدًا فقط.

يعود الرجل كله.]







(16) من النيل إلى البوسفور عبد الله النديم...

أم النديم والأفغاني... ابنٌ رحل ومتاعٌ نُهب

لم تأتِ أم عبد الله النديم إلى الآستانة لتزور قبرًا. جاءت لتزور ابنًا مريضًا، ولعلها كانت تحمل في قلبها من الدعاء ما يكفي ليعود معها إلى الحياة وإلى مصر. قطعت البحر، وحملت معها شوق السنين، وعبرت المسافة التي فصلتها عن ولدها طويلًا. لكنها وصلت بعد أن سبقها الموت إليه. لم تجد عبد الله الذي جاءت من أجله. وجدت خبر رحيله.

والأقسى أنها، وفق ما يرويه أحمد أمين، وجدت شقيقه معها أمام متاعه وأثاثه وقد تعرضا للنهب. كأن الغياب لم يكتفِ بأن يأخذ الإنسان، بل امتدت يد أخرى إلى الأشياء التي كان يمكن أن تحتفظ بها الأم من بعده. كان ينبغي أن تجد سريره، وثيابه، وكتبه، شيئًا تلمسه لتطمئن أن ولدها عاش هنا، وأن هذا المكان عرف صوته وخطواته. لكن المكان لم يمنحها ما جاءت تبحث عنه. ولم يبقَ أمامها إلا أن تسأل عن قبره.

هنا يدخل إلى الحكاية رجل آخر من رجال ذلك العصر، جمال الدين الأفغاني، الذي عرف عبد الله النديم في حياته، وشاركه بعض أحلامه وخصوماته، وتقدم المشيعين في جنازته. وتذكر روايات لاحقة أن الأفغاني أرشد الأم وشقيق النديم إلى موضع قبره. المشهد ما زال قادرًا على أن يستعيد صوته الإنساني، وأن يضعنا أمام أم لا تريد من الدنيا كلها إلا ولدها.

أين عبد الله يا جمال الدين؟

رحل يا أم عبد الله.

أعرف أنه رحل. لقد أخبروني بذلك. لكنني جئت من مصر لأراه. أين هو الآن؟

لقد ودعناه ودفناه.

وأين وضعتموه؟ دلني عليه.

لقد سار وراءه رجال الدولة والعلماء، وأكرمه السلطان، وخرجت له جنازة عظيمة.

أنا لا أسألك عمن مشى وراءه يا جمال الدين. أسألك عن ولدي. أين وضعتم عبد الله؟

ومـا الـذي يمكـن أن يقولـه رجـل امتلـك مـن الفصاحـة مـا جعـل الملـوك يخشـون كلماتـه، أمـام أم لا تطلـب منـه إلا أن يدلهـا علـى قبـر ابنهـا؟

مـا قيمـة البلاغـة فـي مواجهـة دمعـة أم؟ ومـا قيمـة كل الذيـن سـاروا خلـف النعـش، إذا كانـت التـي حملـت صاحبـه فـي بطنهـا لـم تسـتطع أن تسـير وراءه؟

كأن الأم تقول له:

لـم أكـن أريـد أن أراه عظيمًـا فـي عيـون النـاس. كنـت أريـد أن أراه حيًـا أمـام عينـي.

خذني إليه يا جمال الدين.

خذني إلى آخر مكان عرف الطريق إليه.

وأتوقـف طـويلًا أمـام الرحلـة القصيـرة مـن موضـع اللقـاء إلـى القبـر. لا نعـرف تفاصيـل الطريـق الـذي سـلكاه. ولا عـدد الخطـوات التـي قطعتهـا الأم قبـل أن تقـف أمـام موضـع دفنـه. لكننـا نعـرف أن الطريـق إلـى قبـر الابـن ليـس كأي طريـق.

ربمـا كانـت تسـتعيد طفولتـه فـي الإسـكندرية. صوتـه الصغيـر قبـل أن يصبـح خطيبًا تهتـز لـه الميادين.

وجهه قبل أن تصنع السياسة من عمره حكاية مطاردة ومنفى. ربما كانت تسمع في داخلها صوتًا قديمًا يناديها، وتبحث بين الوجوه عن وجه تعرفه منذ ولادته.

وصلت إلى ولدها أخيرًا. لكنها لم تستطع أن توقظه. كان تحت التراب، بعيدًا عن البيت الذي عرف طفولته، وعن الأرض التي ظل يتمنى العودة إليها.

وأتصور أن أقسى ما يمكن أن يقال في هذا الموضع ليس رثاء طويلًا، بل كلمات قليلة تخرج من قلب أم:

يا عبد الله.

أنا هنا يا ولدي.

جئت إليك.

لماذا لم تنتظرني؟

في تلك اللحظة لم يكن عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، ولا أديب مصر، ولا مفتش المطبوعات في الآستانة. كان مجرد ابن تأخرت

أمه عن وداعه. ولعل هذا هو أكثر ما يؤلم في الحكاية كلها.

لقد استطاعت الأم، كما تروي الروايات، أن تصل إلى قبر ولدها قبل مئة وثلاثين عامًا. أما نحن، فما زلنا نبحث عن الموضع الذي وقفت أمامه. كانت تبحث عن ابنها فوجدت قبره. ونحن نبحث عن قبره لنستعيد ابنها إلى ذاكرة وطنه.

في الخامس عشر من أكتوبر عام ألف وثمانمائة وستة وتسعين، نشرت صحيفة «ثروت فنون» العثمانية خبر وفاة عبد الله النديم، وظهر اسمه في فهرسة الصفحة الرابعة والعشرين، موصوفًا بمفتش المطبوعات العربية، وأحد مشاهير أهل الفضل والأدب. توقفت طويلًا أمام المفارقة.

الرجل الذي عجزنا بعد مئة وثلاثين عامًا عن تحديد موضع قبره، كان اسمه منشورًا في صحيفة عثمانية بعد أيام قليلة من رحيله. عرفت الجريدة موته. وعرفت الجنازة طريقها. أما نحن، فما زلنا نبحث عن العنوان.

لم يكن النديم مجهولًا في إسطنبول. يروي جرجي زيدان، نقلًا عن سيرة وضعها أحمد سمير، أن السلطان عبد الحميد الثاني أمر بتشييعه في جنازة رسمية على نفقته الخاصة. سارت أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وطلاب المدرسة السلطانية، وشارك في وداعه كبار رجال الدولة والعلماء، وتقدم المشيعين جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد ظافر وعبد الرحمن الجزولي.

رجل طاردته الشرطة في حياته، سارت أمام نعشه في وداعه. وكاتب أزعج السلطات بخطبه ومقالاته، احتفى به رجال السلطة بعد موته. وثائر لم يستطع أن يحقق أمنيته الأخيرة في العودة إلى وطنه، وجد دولة أخرى تكرمه، بعدما انتهت فرصته في أن يعود حيًا.

كان يريد مصر، فأعطوه جنازة تليق به.

[وما أشد قسوة أن يملك السلطان أن يكرم الإنسان بعد رحيله، بينما يظل حق ذلك الإنسان في العودة إلى وطنه أمرًا لا يملكه].

بعد أسابيع من البحث، بدأت أرى في الحكاية أكثر من لغز شاهد غائب. إنها قصة انتقال الذاكرة من جيل إلى جيل. جنازة عرف الناس طريقها. ومدفن وصل إليه المشيعون. وأصدقاء عرفوا الرجل والمكان. وأم جاءت من مصر لتقف عند قبر ابنها.

ثم مضت السنوات. ومات الشهود. وتغيرت المدينة. وانقطعت الصلة بين الاسم والموضع. لا أملك دليلًا على أن القبر أزيل، أو أن شاهده أتلف، أو أن جهة تعمدت طمس اسمه. قد يكون الحجر باقيًا. وقد يكون النقش مطموسًا. وقد تكون هناك وثيقة في جرد قديم تحمل ما نفتش عنه.

لهذا لا ينبغي أن نستبدل الوثيقة بالظن، أو نحول الألم إلى اتهام بلا دليل. لكن من حقنا أن نعرف، ومن واجبنا أن نبحث. فالذاكرة الوطنية أمانة، لا مجرد حنين إلى الماضي.

بدأت هذه الرحلة منذ سنوات أمام شاهد قرأت عليه اسم النديم، ثم اكتشفت أنه توقيع خطاط عثماني، لا اسم صاحب القبر. وعدت إلى

مقبرة يحيى أفندي في بشكتاش، وامتدت الرحلة إلى دراسات الباحثة التركية توبا روهنكيز أزاكلي، وإلى سجلات الأوقاف وجرد الشواهد، وإلى جهود بلال فضل والدكتور عمرو عبد العزيز منير والدكتور عمار علي حسن. ومع اتساع البحث، لم يعد النديم مجرد اسم نبحث عنه بين الأحجار، بل صار اختبارًا لقدرتنا على إنقاذ جزء من تاريخنا من الضياع.

فإذا كانت الصحيفة قد سجلت خبر وفاته، وسجلت المصادر أسماء المشاركين في جنازته، فربما نجد في الصحف المجاورة والدفاتر الرسمية وسجلات الدفن خيطًا يصل بين ذلك اليوم وموضع القبر. فالطريق إلى النديم قد يبدأ هذه المرة من صفحة جريدة، لا من بوابة مقبرة.

[المنفى لا يقاس بطول المسافة بين الإنسان وبلاده. قد يعيش المنفي في مدينة تحتفي به، ويحيط به الأصدقاء، ويجد من يحترمه ويقدره، لكنه يظل محرومًا من حق العودة، ومن رؤية أهله، ومن اختيار الأرض التي يقضي عليها أيامه الأخيرة. وهذه هي المأساة السياسية والأخلاقية.]

النديم لم يكن ينقصه أن يعرفه الناس.

كان ينقصه أن يستطيع الرجوع إلى الذين يعرفونه ويحبونه. وما أبشع أن تصبح العودة إلى الوطن امتيازًا تمنحه السلطة، لا حقًا يملكه الإنسان. فالسنوات التي تمضي بعيدًا عن الأهل لا تعود بقرار، ولا يستردها اعتذار.

وأفكر هنا مرة أخرى في تلك الأم التي قطعت البحر. كم كان سيتغير من الحكاية لو استطاع عبد الله أن يعود إلى مصر قبل مرضه؟ أو تصل هي قبل موته ؟

ربما كانت أمه ستمسك بيده في أيامه الأخيرة. وربما كان سيجد في بيته ما لم يجده في وحدته. وربما كنا اليوم نعرف موضع قبره دون كل هذا البحث.

لكن التاريخ لا يعود إلى الوراء ليرحم أصحابه. ونحن لا نملك أن نغير ما جرى. نملك فقط ألا نسمح للغياب بأن يبتلع ما تبقى.

لذلك لا أريد أن ينتهي هذا المشروع بالعثور على القبر، مهما كانت قيمة ذلك الاكتشاف.

أريده بداية لعمل أكبر. أن نصل إلى ما بقي من أوراق النديم في الآستانة. أن نراجع ما نشره وما لم ينشره.

أن نعيد قراءة رسائله وعلاقاته وخصوماته وكتاباته عن الاستقلال والحرية والعدل. وأن نقدمه للأجيال الجديدة رجلًا من لحم ودم، لا تمثالًا صامتًا ولا اسمًا محفوظًا في كتاب مدرسي. فالوفاء للمفكر لا يكون بتحويله إلى أسطورة، بل بإعادته إلى التاريخ كما كان، بكل ما له وما عليه.

اليوم، في الذكرى المئة والثلاثين، أرى ثلاث صور لا صورتين. الصورة الأولى لجنازة مهيبة تسير في طرقات الآستانة، يعرف المشيعون وجهتهم ويعرفون من يودعون. والثانية لأم عبرت البحر، ووقفت أمام قبر ولدها، بعد أن فاتتها الفرصة الأخيرة لتراه حيًا.

والثالثة لرجل مصري، لم يرَ النديم بعينه لكنه يعود بعد أكثر من قرن إلى مقبرة يحيى أفندي، يتأمل الشواهد، ويتوقف أمام النقوش، ويبحث بين آلاف الأسماء عن اسم يعرفه جيدًا، ولا يعرف بعد أين يستقر تحته صاحبه.

بين الصور الثلاث مئة وثلاثون عامًا. لكن المسافة الحقيقية بينها ليست مسافة الزمن وحده. إنها المسافة بين ذاكرة عرفت الطريق ذات يوم، وذاكرة تحاول اليوم أن تستعيده.

لا أريد أن أورث هذه الحيرة إلى من يأتي بعدنا. ولا أريد أن يصبح النديم مجرد مناسبة سنوية نلقي فيها الكلمات، ثم نتركه عامًا جديدًا بين دفاتر لم نفتحها وأحجار لم نقرأها.

في الصفحة الرابعة والعشرين من صحيفة صدرت قبل مئة وثلاثين عامًا، وجدنا خبر رحيل عبد الله النديم. لكن التاريخ لم يقل بعد أين يرقد، ولا كيف انقطعت الصلة بين جنازة عرف الجميع طريقها وقبر لم نتمكن نحن من تحديده. وهنا تبدأ مسؤوليتنا.

أن نحول الخبر القديم إلى بحث حاضر، وأن نصل بين ما حفظته الصحيفة وما أخفاه الزمن، بالوثيقة لا بالظن، وبالعمل لا بالرثاء. وما زلت أؤمن أننا سنصل إلى بعض الإجابات، ما دمنا نرفض أن نعامل الظنون بوصفها وثائق، أو أن نقبل

النسيان بوصفه قدرًا.

قبل مئة وثلاثين عامًا، احتاجت الآستانة إلى سطور قليلة كي تعلن أن عبد الله النديم مات. واليوم تقع علينا مسؤولية أن نقرأ ما بقي من وثائقها، وأن نعيد إلى اسمه مكانه في ذاكرة وطنه.

أما هو، فقد أدى رسالته ومضى. وبقيت أمه، في ذاكرتي، واقفة أمام قبر عرفته يومًا، ولم نعد نعرف طريقنا إليه. لعل أقل ما نستطيع أن نفعله وفاءً لتلك الأم، أن نعيد العثور على الموضع الذي وقفت فيه، قبل أن يتحول نسياننا إلى منفى آخر لابنها.

{يتبع... غدًا إن شاء الله}



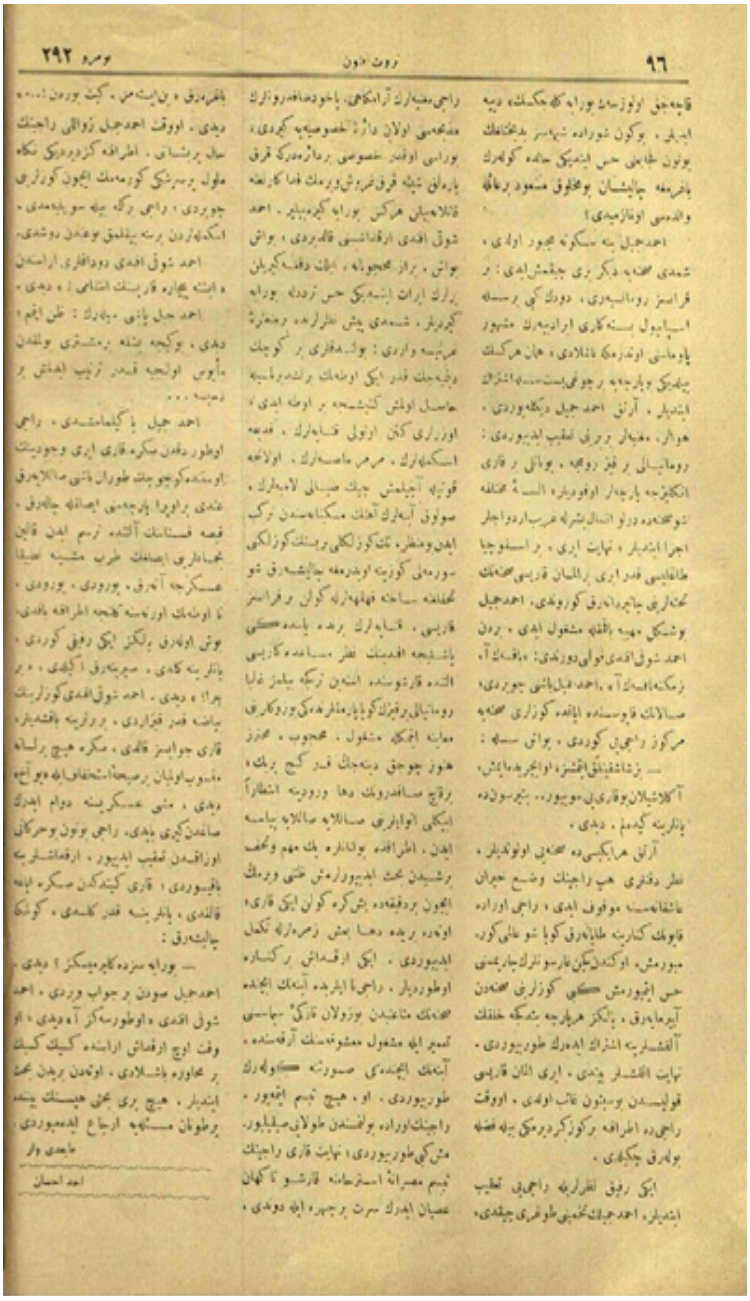
ثروت فنون

SERVET-I-FUNOUN

CONSTANTINOPLE

(قونیده مولانا جلال الدین رومی حضرتلرینك تربهٔ منیفه‌لری ایله جامع‌شریفی)

Le Tombeau et la Mosquée de Meviana à Konia, d'après les phot. de Notre rédacteur en chef.



٩٦ روزنامه ٢٩٢ نومره

قاچه‌جق اولوز سنه‌لر بوراده كلوب گچكدن دنيه ايدرلر . بوگون شوراده شهرستر بدلخانه‌لك يونون طاغيلمن حس ايتديگى حالده گورلرك باغرمه چاليشان بوقلوق مسعود رعايه والدمى اولازميدى !

احمد جمل يه سكوته مجبور اولدى ، شمدى صحنه‌ده ذكر برى چيقمش ايدى : بر فرانسز روسالهدرى ، دوك كى برسنه اسپانيول سنه‌كارى ايراديه‌رك مشهور پاوماسى اولدرمك مقابلده ، هان هركسك بيلديگى وچارچوه بر رجوفى پست سنه انتقام ايتديلر . آرتق احمد جمل ديكله‌يوردى . هوالر ، مغبار برزى تعقيب ايديوردى : روماتيسالى بر قيز روچه ، يوانى بر قارى انگليزجه پارچه‌لر اوقويورلر ، السنهٔ مختلفه‌ده درلو انسان بشره غريب اوصاجلر اجرا ايتديلر ، نهايت ايرى ، بر اسلوجا طاقليسى قدر ايرى ، لسان قارسى صحنه‌لك تحت‌ارضى چاچره‌لرنى گوردى . احمد جمل وشكلى مهيه بالطبع مشغول ايدى ، دون احمد شوقى افندى تولى‌يوردى : «افندم آه ، زمكه‌افندم آه» ، احمد جمل باشى چوردى ، صالاك قاپوسنده ايلانه گوزارى صحنه‌سى مركوز راجعين گوردى ، يوانى سسله :

— بزشاشيلق ايقتضه‌ر ، اوايجره‌دايمش ، آكلاشيلان بوقارى‌لى موويور ، بتيرسون ده پانارينه گيدهلم ، دىدى .

آرتق هرايكيسى ده صحنه‌يى اوتوديلر ، نظر دقتلرى هپ راجعين وضع جبان ماشقاهمسنه موقوف ايدى ، راجى اوراده قاووك كنارنه طلاچرق گويا شو حالى گورمه‌يورمش ، اوگندكجگن فارسولرك چاربصى حس ايتيوردش گگى گوزارى صحنه‌دن آيرمايورق ، پانگر هربارچه بشمگه خلقك آلقشلرينه اشتراك ايدرك طوريوردى . نهايت القشلر بيتدى ، ايرى لالن قارسى قوليسدن بوسيتون غائب اولدى ، اووقت راجى ده اطرافه بر گوزگزدرمگه باشه قضه بولمرق چكيلدى .

ايكى رفيق نظرلرينه راجعين تعقيب ايتمه‌لرى ، احمد جمل‌ك تخمينى طوغرى چيقدى ، راجى معغبارك آرقاسنجه ياخود صاغدن صولدن دمغمسى اولان دائرهٔ خصوصيه‌يه گيردى ، بوراسى اوقدر خصوصى برمحل‌مدركه فرق پارهلى تپه فرق غروش ورمك فدا كارلغنه قائلاميان هركس بوراية گيره‌بيلر . احمد شوقى افندى ارقداشنى قالديردى ، يوانى يوانى ، براز مجبوبانه ، ايلك دفعه گيريان بارك ايراد ايتمه‌گى حس ايتدرك بوراية گيره‌بيلر ، شمدى پش نظرلرده ، رمضانهٔ عربيسه واريرى : بوشه‌فكرى بر گوچك وجيه‌جك قدر ايكى اوطه‌لك براندهٔ رمضانيه حاصل اولمش كنيشجه بر اوطه ايدى ، اورارى كاتى اولول قناعتلرك ، قدمجه اسكمله‌لرك ، مرمر ماصه‌لرك . اولاغه قوتيله آچيلمش جبك صندلى لامبه‌لرك ، صوتوق آيه‌لرك آلعت ميكانه‌سندن ترك ايدن وضعظره ، تك تك گوزلكلى برسنك گوزلكلى سورمه‌لى گوزيله اوزرمه چاليشه‌رق شو تحفه‌لره ساحة فهلهلرله گولن برقراسز قارسى ، قناعه‌لرك برده باشده گگى باشيجه اقدمنك نظر مساعده‌كارينى التده قارشوسنده ، اسمان ترگه يلمز غلبا روماتيالى رفيقلرگ گويا بارمغرمه‌گى وزوكلرى معاينه ايچكله مشغول ، محبوب ، عزيز هوز چوچق دينه‌جك قدر گچ يرك ، برقاچ صاغدرمك دها ورديه انتظاراً ايكگى اوتوبرى صالاغه صالاغه پيامه ايدن ، اطرافده بولنانلره بك مهم وگحف برشيمش بحث ايديوزلرمش گبى ورمك ايچون بردفعه‌ده باش گره گولن ايكى قارى ، اوتوره رپده دها بعض زمره‌لرك تكمل ايديوردى . ايكى ارقداشى ركناره اوطوردرلر ، راجى با ايتمه‌لر آيمك ايچنده صحنه‌لك متاعدين بوزولان قارگ جهاسى تعمير ايله مشغول مشغولمكه آرقه‌سنده ، آيمك ايچنده‌كى صورته گوله‌رك طوريوردى . او ، هيچ تيمم ايتيور ، راجينك اوراده بولغمدن طولايى صيقيلور ، مش گى طوريوردى ، نهايت قارى راجينك تيمم مصرانهٔ استرحامنه قارشو تاگهان عصبان ايدرك سرت برچهره ايله دوندى ، باقه‌رق « بن ايشمن ، گيت بورون !... » دىدى . اووقت احمد جمل زوالى راجينك حال پريشانى ، اطرافه گزدورديگى نگاه مغلول پرسرزنيگ گورمه‌مك ايچون گوزارى چويردى ، راجى ركگه يله سو يليه‌مدى ، اسكمله‌لردن برينه يقلمق اوغدن دوشدى .

احمد شوقى افندى دوداقلرى اراسندن « ابنه بچاره قاريسنك استاصلى ! » دىدى .

احمد جمل پاشى جه‌يارك : ظن ايلم ! دىدى ، بوگچه مشله برمشترى بولمدن مأيوس اولنجه قدمر ترتيب ايدلش بر رمضه ...

احمد جمل يا گيلمامشدى ، راجى اوطور دقدن سكره قارى ايرى وجوديتك اوستنده‌كوچوجك طورلى باشى صالاجرق غندى پر اوروپا پارچه‌سى ايصالله جالغرق ، قصه فستانيك آلتنده ترسم ايدن قاچن غيابارى ايصلغك طرب مشيه تعصلا عسكرجه آچرق ، پوروى ، پوروى ، تا اوطه‌لك اورته‌سنه كلجه اطرافه باقدى ، بوش اولدرى پانگر ايكى رفيق گوردى ، پانارينه گلدى ، سيرينه‌رق « گيلدى » ، « بر چراى » دىدى . احمد شوقى افندى گوزلرينك ياشه قدر فيزلدرى ، بر رپه باقشدىلر ، قارى جوابنر ويرمدى ، سكره هيچ رلساله مأيوس اولمش پر صحبتلشمغه باشله‌يوجه‌ه دىدى ، مثى عسكرينه دوام ايدرك صاغدن گيرى بيدى ، راجى بونون وحركاتى اوزاقدن تعقيب ايديور ، ارقداشلرينه باقيوردى ، قارى گيندكدن سكره ايله قالدى ، پانارينه قدر گلدى ، گوندك چاليشه‌رق :

— بوراية سوزه گلميه‌جكسز ؟ دىدى ، احمد جمل سودن بر جواب وردى ، احمد شوقى افندى « اوطوره‌گز آه » دىدى ، او وقت اوچ ارقداشى اراسنده گيك گيك بر محاوره باشلادى ، اوندن برين محل ايتديلر ، هيچ برى بحثى هيچ‌بنك يتمه‌رطوفان مستهيه ارجاع ايدميوردى

ماجدى واثر

احمد احسان

(17) أوراق النديم الهاربة من البوسفور للنيل

«الاحتفاء في الاختفاء» والمسامير والنديم أسير

عجيب أمر هذا الرجل. كلما ظننت أنني اقتربت من نهاية حكايته، فتحت لي ورقة قديمة بابًا إلى حكاية أخرى. وكأن عبد الله النديم، الذي قضى سنوات يهرب من عيون السلطة، ترك وراءه أوراقًا تتقن الاختفاء أكثر مما أتقنه صاحبها.

في الآستانة، جرت واقعة تستحق أن تكون فصلًا في رواية، لولا أنها وردت في كتب التاريخ.

كان النديم قد انتهى من تأليف كتاب ساخر أسماه «المسامير»، وجّه فيه سهام هجائه إلى الشيخ أبي الهدى الصيادي، أحد أكثر رجال الحاشية قربًا من السلطان عبد الحميد الثاني.

بلغ الخبر الصيادي، فقيل إنه أبلغ السلطان أن الكتاب يتضمن هجاءً له أيضًا. وبدأ البحث عن المخطوطة، التي لم تكن قد طبعت بعد.

لكن الكتاب اختفى.

ولم يكن اختفاؤه نهاية الحكاية، بل بدايتها.

يروي أحمد أمين أن رجلًا يدعى جورج كرتشي، كان على صلة بالنديم وجمال الدين الأفغاني، احتفظ بالمخطوطة وأخفاها، ثم استطاع الفرار بها إلى مصر، حيث طبعت بعد ذلك.

أتخيل تلك الأوراق وهي تنتقل بين الأيدي، لا يميزها في ظاهرها شيء عن أي أوراق أخرى. لكنها تحمل كلمات كان يمكن أن تثير غضب رجل من أقوى رجال السلطنة.

ولا أعرف كيف جرى العبور، ولا الطريق الذي سلكه حامل المخطوطة، ولا ما إذا كانت الأوراق قد خبئت بين ثياب أو في حقيبة سفر. فالمصدر لا يقدم هذه التفاصيل.

لكن المفارقة التي بقيت بعد أكثر من قرن تستحق التأمل.

نجحت بعض أوراق النديم في الرحلة التي حُرم منها صاحبها. عادت الكلمات إلى مصر، وبقي الكاتب أسير المنفى.

ولم تكن «المسامير» مجرد كتاب في الخصومة بين رجلين.

كانت عنوانًا لطبيعة عصر تختلط فيه السلطة بالشخص، والسياسة بالمكانة الدينية، ويصبح القرب من الحاكم بابًا واسعًا للنفوذ.

لكن من الإنصاف أن نتوقف أمام الوجه الآخر للحكاية.

فأحمد أمين، الذي نقل واقعة تهريب المخطوطة، لم يبد إعجابًا بمضمون الكتاب، بل انتقد ما تضمنه من هجاء جارح، ورأى أنه لم يكن مما يشرف صاحبه.

وهنا تظهر قيمة الحرية في صورتها الأصعب.

أن ندافع عن حق الكاتب في التعبير، دون أن نكون ملزمين بالدفاع عن كل ما كتب.

فالكاتب الكبير قد يخطئ، وصاحب الموقف الوطني قد يظلم خصمه، والموهبة العظيمة لا تمنح صاحبها حصانة أخلاقية.

الحرية ليست شهادة بحسن السلوك، ولا جائزة تمنح للأفكار التي نحبها.

إنها حق لا ينبغي أن يتوقف على رضا أصحاب السلطة.

ولهذا أستطيع أن أختلف مع بعض ما كتبه النديم في «المسامير»، وأن أرفض في الوقت نفسه أن يصبح مصير كتابه مرهونًا بغضب رجل نافذ.

لكن «المسامير» لم تكن إلا ورقة واحدة من شجرة هائلة، تساقطت أوراق كثيرة منها على طرق المطاردة والمنفى.

أعدت قراءة ترجمة جرجي زيدان للنديم، وهي تستند إلى سيرة وضعها صديقه أحمد سمير، فوقفت أمام أرقام تكاد تصدم القارئ.

يتحدث زيدان عن دواوين شعرية تضم آلاف الأبيات، وعن واحد وعشرين كتابًا في موضوعات مختلفة، وعن ديوان قارب عشرة آلاف بيت، قيل وقت كتابة الترجمة إنه كان محجورًا عليه في الآستانة.

ثم يذكر عناوين بعضها يبدو كأنه يحمل سيرة صاحبه بين كلماته.

«النخلة في الرحلة».

«الشرك في المشترك».

«موحد الفصول وجامع الأصول».

وأشـــدها إثـــارة لوجدانـــي عنـــوان «الاحتفـــاء فـــي الاختفـــاء».

يا لها من بلاغة تختصر العمر!

رجـل عـاش قرابـة عشـر سـنوات متواريًـا عـن عيـون المطاردين، يصنـع مـن الاختفـاء عنوانًـا لكتاب.

لا نملـك نصًـا كاملًا موثقًـا لهـذا العمل، فلا نسـتطيع أن نجـزم بمضمونـه. لكـن العنـوان وحـده يدعونـي إلـى تصـور رجـل يكتـب لـيلًا، فـي غرفـة لا يريـد أن يعـرف أحـد موضعهـا، ويصغـي إلـى وقـع الخطـوات فـي الخـارج قبـل أن يعـود إلـى قلمـه.

ربما كان يكتب ليهزم الخوف.

وربمـا كان يخشـى أن تضيـع حياتـه مـن دون أن يتـرك لهـا شـاهدًا.

وربمـا كانـت الكتابـة، فـي سـنوات الاختفـاء، وطنـه الصغيـر الـذي يسـتطيع أن يدخلـه كلمـا ضاقـت عليـه الأرض.

فليس كل اختفاء غيابًا، وقد يترك المختفي أثرًا أعمق من أثر الذين ملأوا الدنيا حضورًا.

ومن أغرب ما وجدته عند جرجي زيدان أن جامعي تراث النديم لم يستطيعوا، بعد جهد كبير، الوصول إلا إلى أربع عشرة رسالة من رسائله الأدبية.

أربع عشرة رسالة!

أيعقل أن هذا الرجل الذي ملأ الصحف والخطب والمجالس بالكلام، لم يبق من رسائله التي أمكن جمعها آنذاك إلا هذا العدد؟

كم رسالة كتب إلى أمه؟

وكم كتب إلى شقيقه عبد الفتاح؟

وكم ورقة أرسلها إلى صديق في مصر، يطمئنه فيها على صحته، أو يشكو إليه وحدته، أو يسأله عن أخبار وطن لم تفارقه ذكراه؟

لا نعرف.

وربما أجد هنا جوابًا لمن يكررون عليّ: لماذا تكتب كل هذا القدر؟

أكتب لأن المنفى يجعل للكلمات وظيفة أخرى. فهي تسافر عوضًا عنا. لكن حظي أفضل من حظ النديم. فكلماتي تعبر البحار في ثوانٍ، وقد تحفظها الذاكرة الرقمية طويلًا، بينما كانت رسائله تحتاج إلى يد أمينة تحملها، وسفينة تعبر بها، وأيام أو أسابيع من الانتظار، وربما تصل بعد أن يتغير كل ما كتبت من أجله.

ولا يصح أن نملأ فراغ الوثائق بحكايات ننسبها إليه.

لكننا نستطيع أن نفهم ما تعنيه الرسالة لرجل يعيش بعيدًا عن بلاده.

فالرسالة ليست حبرًا فوق الورق فحسب.

إنها محاولة للمصافحة من وراء البحار.

وعناق تؤجله المسافات.

ونافذة يفتحها المنفي في جدار غربته.

وقد تكون رسالة قصيرة، كتبها رجل في ساعة ضعف، أصدق في الكشف عن إنسانيته من خطبة هزت آلاف المستمعين.

لهذا أبحث عن رسائل النديم بشغف لا يقل عن شغفي بالبحث عن قبره.

فالقبر يخبرنا أين انتهى الجسد.

أما الرسالة فقد تخبرنا كيف عاش القلب.

ولعل من أكثر التفاصيل التي لفتتني في سيرة النديم ما رواه جرجي زيدان عن سخائه.

يذكر أنه كان يتلقى مالًا من مصر ومن الآستانة، فلا تمر أيام حتى يكون قد وزعه على الأقارب والمحتاجين، دون أن يحتفظ لنفسه إلا بالقليل.

ويصفه بأنه لم يكن يرد سائلًا، ولا يطالب من أقرضه باسترداد قرضه.

لا أعرف مقدار ما في هذه الصورة من محبة الصديق الذي نقل سيرته، لكنني أجد فيها وجهًا آخر للرجل الذي نعرفه ساخرًا ومقاتلًا بالكلمات.

كان شديدًا في خصومته، رقيقًا في عطائه.

لسانه حاد في مواجهة أصحاب النفوذ، ويده مفتوحة لمن يقصده محتاجًا.

وأعرف من تجربة السجن والمنفى أن الناس لا يرون دائمًا من المعارض إلا وجهه السياسي، بينما تختبئ وراء ذلك الوجه حياة أخرى، فيها ضعف الإنسان، وحنينه، واحتياجه إلى من يسأله عن يومه لا عن موقفه. ولهذا أبحث عن النديم الإنسان، لا عن النديم الذي صنعته المنابر وحدها.

وهذه التناقضات الإنسانية أجمل من الصورة المصقولة التي تصنعها كتب التمجيد.

فنحن لا نبحث عن قديس، بل عن إنسان.

إنسان يستطيع أن يغضب ويخطئ، وأن يسخر بقسوة، ثم يلين قلبه أمام محتاج لا يعرفه.

وبعد رحيله، بدأت رحلة أخرى لإنقاذ ما تبقى من صوته.

نهض شقيقه عبد الفتاح وصديقه محمود واصف بجمع ما استطاعا الوصول إليه من كتاباته، وخرج إلى النور كتاب «سلافة النديم».

ولعل أجمل ما في هذه الحكاية أن الذين حاولوا إنقاذ تراثه لم يكونوا أصحاب سلطان، بل أصحاب وفاء.

أتخيل عبد الفتاح وهو يقلب أوراق أخيه، يتعرف على خطه، ويقرأ عباراته، وربما يتوقف عند كلمة تذكره بصوته.

وأتخيل محمود واصف يبحث بين الصحف القديمة والرسائل المتناثرة عما يمكن جمعه قبل أن يبتلعه النسيان.

لقد جمعا كتابًا من بقايا حياة.

ولم يعيدا عبد الله إلى الدنيا، لكنهما أعادا إلى الدنيا شيئًا من عبد الله.

والأجمل أن النسخ القديمة من «سلافة النديم» لا تزال محفوظة في مجموعات مكتبية، ومنها نسخة مصورة أتاحتها مجموعة الكتب العربية الرقمية بمساهمة مكتبة جامعة كورنيل.

هنا يصبح الوفاء قابلًا لأن نراه بأعيننا، لا أن نكتفي بالحديث عنه.

ولا تزال أمامنا حكاية أخرى لم تستكمل وثائقها.

فقد نقل رشيد رضا عن شقيق النديم أن بعض كتب أخيه بقيت في الآستانة عند الشيخ محمد ظافر، وأن تسليمها تعثر بسبب أمر بفحصها.

هذه شهادة تستحق البحث، لكنها لا تثبت أين انتهت الكتب، ولا أن النسخ المذكورة بقيت إلى يومنا هذا.

قد نجد أثرها في فهرس عثماني، أو سجل مكتبة، أو مجموعة خاصة.

وقد لا نجد شيئًا.

لكنني أرفض أن يتحول نقص الدليل إلى عذر لوقف البحث، كما أرفض أن يتحول الأمل إلى يقين لا سند له.

فالفارق بين الباحث وصانع الأساطير أن الأول يستطيع أن يقول لا أعرف، ثم يواصل البحث.

أما الثاني فيملأ الفراغ بما يتمنى أن يكون صحيحًا.

أعود إلى «المسامير» التي وجدت طريقها إلى النيل، وإلى «الاحتفاء في الاختفاء» الذي ما زلنا

نبحث عن نصه، وإلى الرسائل الأربع عشرة التي استطاع جامعو التراث الوصول إليها.

ثلاث صور لثلاثة مصائر.

كتاب نجا.

وكتاب بقي عنوانه شاهدًا على غياب نصه.

ورسائل قليلة أفلتت من ضياع أوسع.

أمشي اليوم في إسطنبول التي مشى فيها النديم قبل أكثر من قرن، وأعرف أن المدينة تبدلت، وأن وسائل الاتصال تغيرت، وأن المنفى صار أقل عزلة في ظاهره. لكن الهاتف الذي يحمل إليك صوت وطنك لا يحمل إليك الوطن. والشاشة التي تريك شوارع مدينتك لا تمنح قدميك حق السير فيها.

كأن الزمن تقدم في كل شيء، إلا المسافة التي تفصل المنفي عن باب بيته.

وأفكر أن من أقسى أشكال المنفى ألا يغيب الإنسان عن وطنه وحده، بل أن تتفرق كلماته بعد موته، فلا يعرف أحد أين انتهت.

لهذا لم يعد مشروع «من النيل إلى البوسفور» مجرد بحث عن قبر في مقبرة يحيى أفندي.

إنه بحث عن جسد غاب، وأوراق تفرقت، وفكر يستحق أن يعود كاملًا إلى أصحابه.

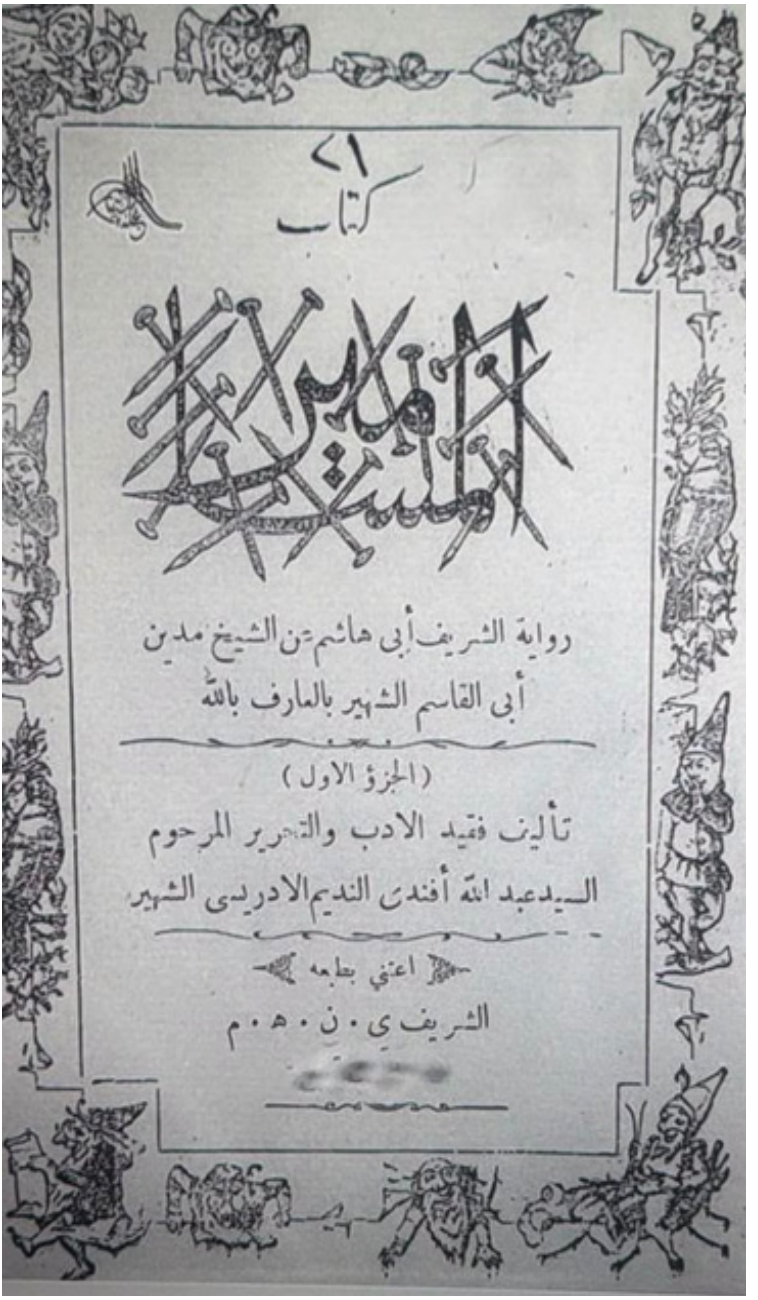
في الحلقة السابقة، بحثنا عن قبر النديم الذي ضاع عنوانه. واليوم نبحث عن كتب بقيت عناوينها وضاعت صفحاتها.

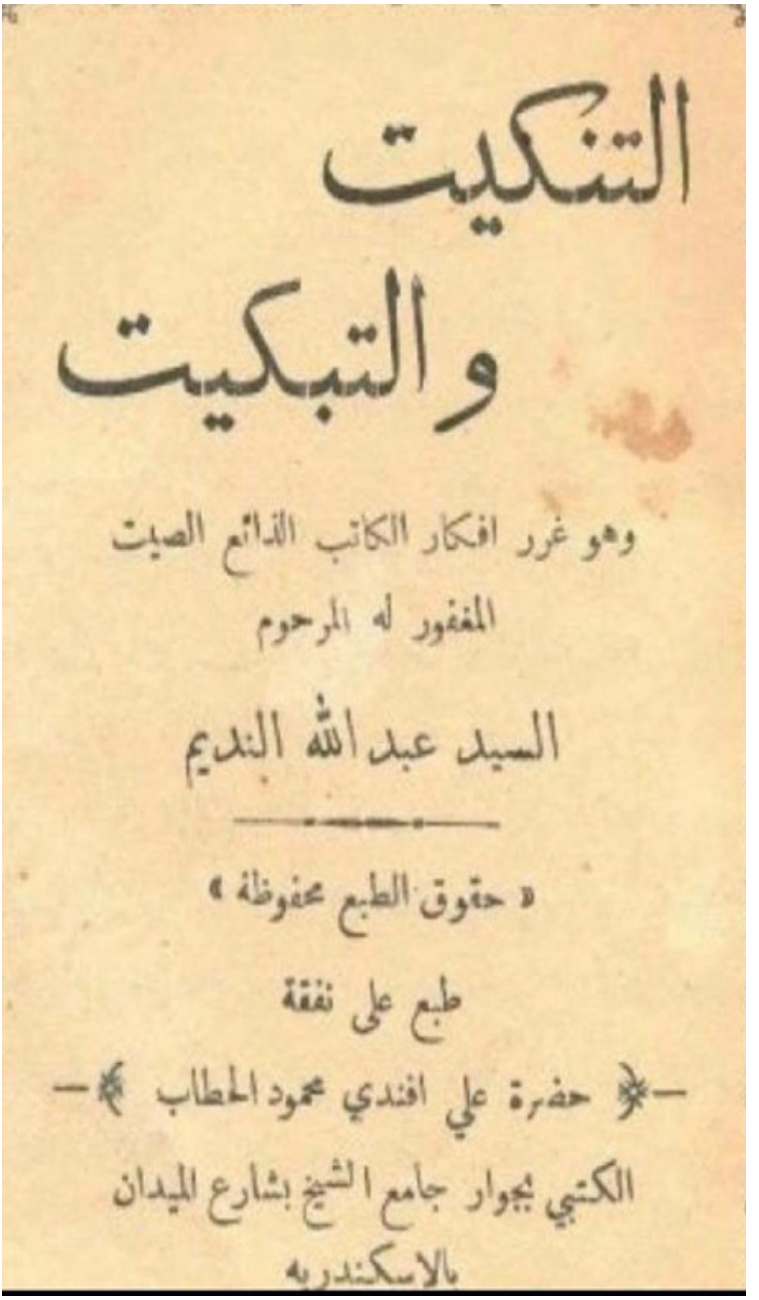
وما أشد المفارقة أن تنجو بعض كلمات الرجل من قبضة السلطان، ثم تواجه بعد قرن وثلث قرن عدوًا آخر لا يقل خطرًا.

النسيان.

لقد استطاعت بعض أوراق النديم أن تعبر من البوسفور إلى النيل.

فهل نستطيع نحن أن نكمل الرحلة، ونعيد من أوراقه ما بقي، ومن فكره ما غاب، ومن سيرته ما يستحق أن يعيش؟


كتاب
رواية الشريف أبي هاشم عن الشيخ مدين
أبي القاسم الشهير بالعارف بالله
(الجزؤ الاول)
تأليف فقيد الادب والتحرير المرحوم
السيد عبد الله أفندى النديم الادريسى الشهير
اعتنى بطبعه
الشريف ي . ن . ه . م



التنكيت والتبكيت

وهو غرر افكار الكاتب الذائع الصيت
المغفور له المرحوم

السيد عبد الله النديم

« حقوق الطبع محفوظة »

طبع على نفقة
حضرة علي افندي محمود الحطاب
الكتبي بجوار جامع الشيخ بشارع الميدان
بالاسكندريه

(18) عثرت على خط يده، فهل نعثر على قبره؟

رسالة النديم لليثي... وتفسير علاقتي بحمدين وبدراوي وعيسى وموسى

ربما يبدأ العثور على الرجل من العثور على خط يده. وربما تقودنا ورقة نجت من الضياع إلى قبر اختفى عنوانه منذ مئة وثلاثين عامًا.

منذ بدأت رحلتي بحثًا عن قبر عبد الله النديم في إسطنبول، وأنا أتنقل بين شواهد المقابر وصفحات الكتب، وبين حكايات المنفى وأوراق الذين عرفوه.

وكلما ظننت أن الطريق أوشك أن ينتهي، اكتشفت أن وراء كل باب مغلق نافذة أخرى تطل على أثر جديد.

اليوم، أظنني عثرت على شيء مختلف. ليس قبر النديم، ولا إحدى مخطوطاته الكاملة، بل رسالتين بخط يده، بعث بهما إلى الشيخ علي الليثي.

وجدت في الجزء الرابع من كتاب قديم جدًا، عثرت عليه في إحدى مكتبات الفاتح العتيقة،

اسمه «الأعلام» لصاحبه خير الدين الزركلي، وفي الصفحة 138 منه، وتحت عنوان يتصل بخط عبد الله النديم، نشر الزركلي رسالتين موجهتين إلى الشيخ علي الليثي، مشيرًا إلى عثوره عليهما بين أوراقه.

توقفت طويلًا أمام الصورتين. حاولت قراءة الكلمات، والتعرف على ملامح ذلك الخط الذي تحركت به يد الراسل، قبل أكثر من قرن.

في إحدى الصورتين أمكنني تمييز عبارة «والشوق والاشتياق»، وفي نهايتها توقيع «ولدكم عبد الله نديم».

أما الصورة الثانية فلم أستطع الجزم بقراءة كلماتها بوضوح.

الرسالتين، لا أعرف حتى الآن أين استقرت أصولهما، أو ما إذا كانت لا تزال موجودة، أم اختفت كغيرها.

لكن صورة الخط تظل أثرًا يستحق أن نتبعه.

هنا يبرز اسم الشيخ علي الليثي، الشاعر الأزهري الذي عرف بلاط الخديوي وقصور الحكم، ثم انضم للثورة العرابية، ثم تراجع فور هزيمتها، في مقابل

عبد الله النديم، خطيب الثورة العرابية ولسانها المتمرد حتى آخر لحظة في حياته.

رجل اقترب أكثر من القصر، وآخر اقترب فقط من الثورة.

وبين الرجلين كانت هناك مراسلات تكشف عن صلة إنسانية وأدبية تستحق التأمل.

ما الذي جمع بينهما؟ وكيف اتسعت المسافة بين موقعيهما السياسيين دون أن تمنع تبادل الرسائل؟

ولم تمنع النديم أن يكتب له بمحبة وتقدير ويوقع رسائله للشيخ علي الليثي (بابنكم عبد الله نديم).

فليس من الإنصاف أن نفترض أن اختلاف الموقع السياسي يعني بالضرورة انقطاع الود.

لقد كان الرجلان ابنين لعصر واحد، رغم وجود 24 عامًا فارق في عمر الشيخ علي الليثي وعبد الله النديم، لكنهما اجتمعا سويًّا في عام الوفاة.

وجمعت بينهما أيضًا بيئة ثقافية متقاربة، وإن اختلفت أدوارهما ومواقعهما في المشهد العام.

وربما كانت تلك واحدة من المفارقات التي تستحق أن نتعلم منها، ونحن نقرأ تاريخنا السياسي بعين لا تختزل البشر في مواقفهم وحدها.

وأتوقف هنا عند معنى يتجاوز حكاية النديم والليثي، ويصل إلى شيء من حكايتي أنا.

فما أبعد المسافة بين أن نفهم دوافع إنسان، وأن نوافق على كل شيء في أقواله أو أفعاله!

فما أضيق السياسة إذا ضاقت فيها مساحة الإنصاف، حتى يصبح الخلاف في الموقف حكمًا على صاحبه، وتصبح لحظة الافتراق قادرة على محو سنوات من المعرفة والمودة.

هذا المعنى رافقني طويلًا في علاقتي بأناس فرقت بيننا السياسة، وخاصة بعد عام 2013. من بينهم زملاء وأصدقاء وأساتذة، جمعتني بهم سنوات من المعرفة والوفد، ثم اختلفت بنا السبل والمواقف.

ولطالما سُئلت باستغراب أو عتاب، وأحيانًا باتهام مبطن: لماذا لا تزال تحتفظ بكل هذا القدر

من حسن الظن بمن اختلفت معهم، وربما قاطعوك في أشد اللحظات حساسية؟

وأذكر هنا أربعة أسماء، لا يجمع بينها تطابق المواقف أو وحدة المسارات، وإنما تجمعها في تجربتي الشخصية سنوات من المعرفة، ولكل صاحب اسم منها مكانه المختلف في قلبي وذاكرتي:

الكاتب الصحفي والصديق القديم إبراهيم عيسى، والوزير السيد عمرو موسى، والصديق والزميل الدكتور حسام بدراوي، والمناضل حمدين صباحي، وآخرين.

ولا أضع هذه الأسماء في موضع واحد من الاتفاق أو الاختلاف، ولا أساوي بين مواقف أصحابها، وإنما أستدعيها لأوضح معنى ظل يشغلني طويلًا.

فالمعرفة الشخصية لا تفرض اتفاقًا سياسيًا، والخلاف السياسي لا يمنحنا حق إنكار ما عرفناه من صفات أو مواقف إنسانية.

وما زلت أرى أن من الممكن أن نختلف بشدة مع بعض أقوال إنسان أو أفعاله، دون أن نمحو من ذاكرتنا كل ما سبقها من معرفة أو مودة أو تقدير.

لقد تعلمت أن أختلف مع مواقف بعض من أحببت، دون أن أستعير من خصومهم حق الحكم على قلوبهم.

وليس حسن الظن تبرئة مجانية من الخطأ، أو إعفاء صاحبه من مسؤوليته، وإنما هو رفض لأن تتحول الخصومة السياسية إلى حكم نهائي على الإنسان كله.

فالإنصاف ليس تنازلًا عن الموقف، كما أن الوفاء للمعرفة القديمة ليس صكًا بالموافقة على ما جاء بعدها.

ولعل هذا ما أعادني إلى رسائل عبد الله النديم والشيخ علي الليثي.

نحن لا نعرف على وجه اليقين كل ما قاله الرجلان لبعضهما، ولا جميع ما جمعهما أو فرقهما. لكننا نعرف أن رسائل النديم وجدت طريقها إلى

الليثي، وأن صورتين منها وصلتا إلينا بعد كل هذه السنوات.

وفي رحلة حفظ التراث، تستحق أسماء من جمعوا الأوراق وصانوا آثار أصحابها، ومنهم أحمد تيمور وخير الدين الزركلي، أن تُذكر بالتقدير.

فلولا ما بقي في الكتب من صور الرسائل وإشارات أصحابها، لما استطعت اليوم أن أتوقف أمام أثر من خط الرجل الذي أبحث عن قبره.

قبل أيام كنت أفتش عن عبد الله النديم بين قبور مقبرة يحيى أفندي في بشكتاش. واليوم أفتش عنه في حروف كتبها بيده قبل رحيله.

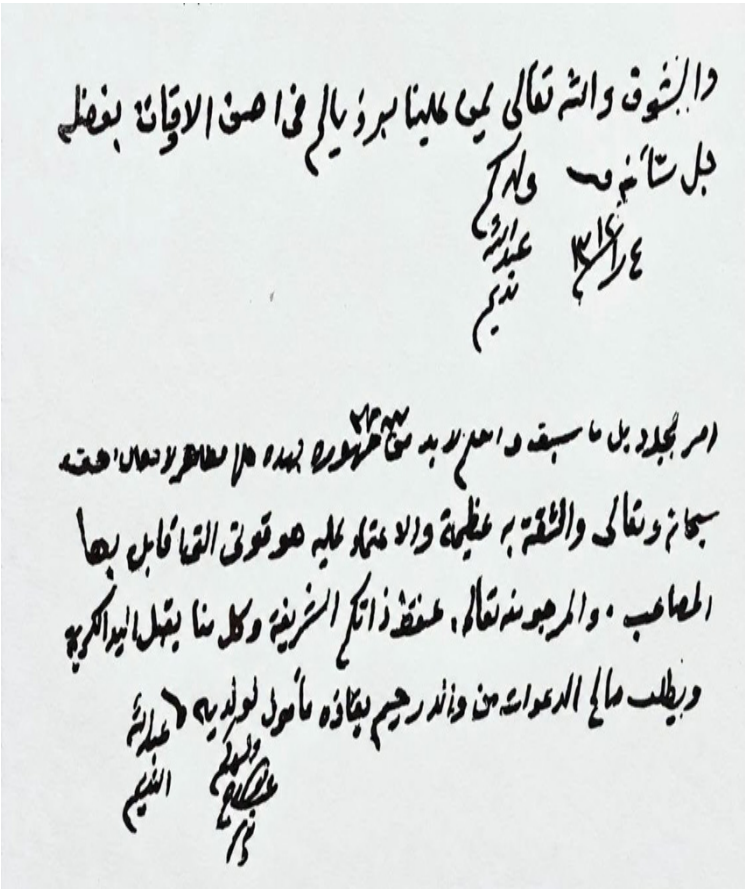
وبين القبر والرسالة مسافة تبدو كبيرة، لكنها في رحلة البحث ليست كذلك.

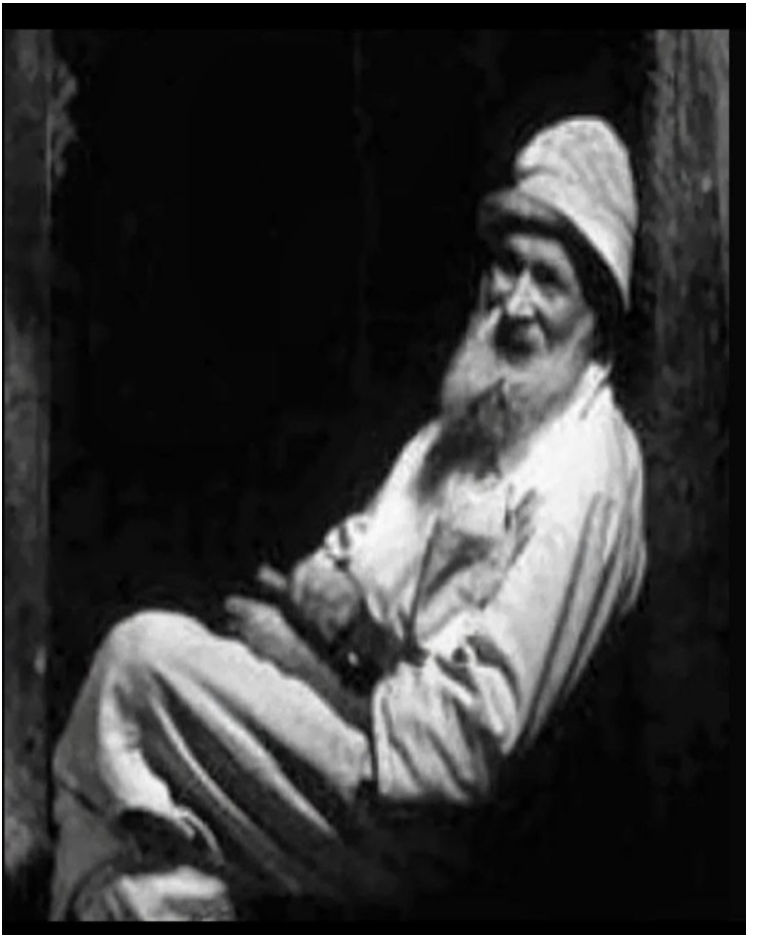
فكل ورقة يمكن أن تقود إلى صاحبها، وكل اسم في هامش كتاب قد يفتح طريقًا إلى وثيقة أخرى، وربما تقودنا الوثائق ذات يوم إلى ما ضاع من عنوان القبر.

لا أدعي أنني وصلت إلى نهاية الرحلة. فما زلنا نفتش عن أصول الرسائل، كما نفتش عن شاهد القبر وموضعه.

لكنني أشعر أن البحث تقدم خطوة جديدة. وأن الرجل الذي غاب جسده عن أعيننا لا يزال يترك لنا إشارات صغيرة، بعضها في الصحف القديمة، وبعضها في بطون الكتب، وبعضها في رسائل وصلت إلى أصدقاء ومعارف، ونجت صورها من غبار السنين.

اليوم وجدنا أثر يده. وما زلنا نبحث عن أثر خطاه.





(19) رحلة البحث عن النديم... من النيل للبوسفور

رسائل تؤجل الوداع...

حين يقترب الكاتب من الصفحة الأخيرة، يبدأ في جمع ما تناثر من أوراقه. أما أنا، فكلما جمعت أوراق هذه الرحلة، وجدت فيها عنوانًا يستحق أن أكتب إليه، أو سؤالًا لم يأخذ نصيبه من البحث. كأن الكتاب الذي أوشك أن يكتمل يطلب مني أن أترك له بابًا مفتوحًا.

بين أوراق عبد الله النديم ورسائلي إلى من قد يعرفون عنه شيئًا، نشأ فصل آخر من الحكاية. فصل أبطاله أناس يقرؤون، ويحفظون، ويفهرسون، ويجيبون عن سؤال جاءهم من رجل يبحث في مدينة كبيرة عن نهاية رجل آخر.

في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ألفين وستة وعشرين، كتبت إلى الدكتورة توبا روهنكيز أزاكلي، الباحثة في شواهد مقبرة يحيى أفندي. حملت الرسالة اسم النديم، ونسبه، وتاريخ وفاته المتداول، وصفته الوظيفية، وسؤالًا عن نقش أو صورة أو رقم يقود إلى موضعه.

وكان في إرسال هذه التفاصيل اعتراف بسيط: لا يكفي أن يكون الراحل عزيزًا علينا كي يصبح العثور عليه يسيرًا على غيرنا. علينا أن نمنح من نستعين به ما يستطيع العمل عليه. فالحنين لا يصلح وحده مفتاحًا لفهرس عثماني.

جاء ردها في التاسع والعشرين من سبتمبر واضحًا. الشاهد الذي نسأل عنه ليس بين الشواهد التي تناولتها أطروحتها. غير أن لديها قراءات للنقوش التي كانت سليمة في المقبرة عام ألفين وثمانية، محفوظة في ملاحظات كتبتها بيدها، ويحتاج فحصها وقتًا.

توقفت عند هذه الأوراق المكتوبة بخط اليد. كم من عمل هادئ لا نعرف قيمته ساعة إنجازه! باحثة تنحني على حجر لتقرأه، ثم تحتفظ بقراءتها سنوات، حتى يأتي سؤال من بلد آخر فيوقظ في دفترها احتمالًا جديدًا. هكذا يتعاون أناس لم يجمعهم موعد، وقد تفصل بين أعمالهم أعوام طويلة.

وفي السادس من أكتوبر أكدت رغبتها في المساعدة. ثم عادت في الثامن منه برسالة أكثر تفصيلًا: لم تصل بعد إلى معلومة تحدد الشاهد، وهي تعيد مراجعة ما لديها، وقد سألت أستاذًا واسع المعرفة بالمقبرة. لم يكن قد سمع باسم النديم، لكنه رجّح احتمال وجود الحجر في الحظيرة الداخلية المعروفة باسم «صوفة الأولياء».

سبق أن تناولت هذا الاحتمال في موضعه من الرحلة. وما يعنيني هنا هو الطريقة التي وصل بها: سؤال انتقل من باحث إلى باحث، وإجابة احتفظت بتحفظها، ومعلومة أرسلت إلينا قبل أن تتحول إلى نتيجة. في هذه المسافة الصغيرة بين «قد يكون» و«وجدناه» تسكن أمانة البحث كلها.

رددت بالشكر، وقلت إن الأمر لا يستدعي الاستعجال، وإنني أرغب في معرفة أي نتيجة، إيجابية كانت أو سلبية.

واليوم أرى أن هذه العبارة تستحق أن تبقى في سجل الرحلة. فمن نطلب مساعدته ليس مدينًا لنا بالخاتمة التي نحبها. والباحثة التي تفتح أوراقها

لنا تمنحنا من جهدها ووقتها؛ فلا يصح أن نجعل امتناننا لها مقدمة لمطالبتها بما لم تعدنا به.

حتى الحادي والعشرين من أكتوبر، لم يظهر في المراسلات التي راجعتها رد أحدث يعلن العثور. وسيظل الشكر واجبًا، أيًّا تكن النتيجة.

ومن هذه التجربة يتضح لي ما ينبغي أن نحمله إلى الجهات الرسمية الحافظة للوثائق، وإلى إدارة الموقع والأوقاف والمكتبات: سؤال محدد، يعرف صاحبه ما يطلب، ويترك للمستند أن يجيب في حدود ما يحتويه.

قد نحتاج إلى قيد دفن، أو دفتر تخصيص مواضع، أو خريطة تربط أرقام الجرد بأماكنها. وقد تحمل ملفات ترميم المقبرة ما يفسر اختلافًا بين صورة قديمة ووضع قائم. هذه مسارات ينبغي التحقق من وجود مادتها وإمكان الاطلاع عليها. ولا يجوز أن نكتب عنها كما لو أننا تسلمنا دفاترها بالفعل، أو أن ننسب إلى مؤسسة تعاونًا لم تثبته أوراقنا.

فالكتابة عن أبواب البحث لا تمنحنا حق الادعاء بأنها فُتحت كلها.

ولعل أهم ما يمكن جمعه الآن هو ذاكرة العمل نفسه: إلى من كتبنا؟ ومتى؟ وما السؤال؟ وما الجواب؟ وأي اسم جُرّب في الفهرس؟ وأي احتمال استُبعد، وعلى أي أساس؟

هذه التفاصيل التي تبدو إدارية تحمي جهد الآخرين من أن يبدأ كل مرة من الصفر. وقد تمنح باحثًا يأتي بعدنا فرصة أن يمضي خطوة أبعد، بدل أن يعيد رحلتنا كاملة ثم يقف عند الموضع نفسه.

لهذا أريد لأوراق المراسلات أن تبقى جزءًا من مادة الكتاب. إنها تبين كيف تشكلت المعرفة، ومن أسهم فيها، وأين انتهى الدليل، وأين بدأ انتظارنا.

لقد صار لهذا البحث رفاق، بعضهم من أصحاب الدراسات التي نرجع إليها، وبعضهم ممن قرأوا سؤالنا وأجابوا عنه. وللمصريين والأتراك الذين عنوا بتاريخ هذا المكان نصيب من الشكر، بقدر ما تثبته أعمالهم وما قدموه. فلا نزيد فضل أحد بنسبة اكتشاف إليه لم يعلنه، ولا نغفل فضل من حفظ معلومة صغيرة قد تصبح يومًا مفتاحًا.

وفي هذا التعاون معنى أحب أن يبقى: أن يحمل إنسان من ذاكرة بلد آخر شيئًا، ثم يعيده إليه حين يسأله عنه. للثقافة وجوه كثيرة، وهذا من أهدئها وأبقاها.

أما النهاية السعيدة التي أرجوها، فلها عندي صورة بسيطة: وثيقة يمكن قراءتها، وموضع يمكن تعيينه، واسم نطمئن إلى أننا لم نضعه على حجر غير صاحبه. ثم يُحفظ ما عرفناه، حتى لا يأتي باحث بعد سنوات فيسأل السؤال نفسه بلا جواب.

قد نصل إلى ذلك، وقد تكشف الأوراق أن بعض ما تمنيناه لم يعد ممكنًا. لكن ما دامت هناك مادة لم تُفحص، وصورة لم تُطابق، وجهة يمكن سؤالها سؤالًا جديدًا، فإن للعمل بقية.

أضع هذا الفصل قبل ختام الكتاب، وأترك في ملف الرحلة مكانًا لرسالة قادمة. رسالة لا أعرف صاحبها ولا موعدها، وأرجو أن تحمل يومًا ما انتظرناه طويلًا.

وحين تصل، إن وصلت، لن تكون مكافأة لصبري وحدي. سيكون فيها نصيب لكل يد حفظت ورقة،

ولكل عين قرأت نقشًا، ولكل من قال بأمانة: لم نجد بعد.

أما الآن، فأطوي هذه الصفحات، وأُبقي عنوان المراسلة مفتوحًا.

لعل أجمل ما سيُكتب عن النديم لم يصلنا بعد.





(20) البحث عن عبد الله النديم

الكواكبي والنديم ومعركتهما مع «علي جمعة عصرهما» أبو الهدى الصيادي

أوقفتني في رحلة البحث عن عبد الله النديم مفارقة غريبة: رجلان من مدينتين مختلفتين، لم أعثر على دليل مؤكد على أنهما التقيا يومًا، لكنهما اصطدما بالشخص نفسه، وذاقا نفوذه، واختلفا معه في أمور تتجاوز الخصومة الشخصية إلى طبيعة العلاقة بين الدين والحكم.

الأول عبد الله النديم، المصري الذي طاردته سلطات الاحتلال، وانتهت به الحياة منفيًا في الآستانة.

والثاني عبد الرحمن الكواكبي، الحلبي الذي ضاقت به مدينته تحت وطأة الصراعات والوشايات، فوجد في القاهرة وطنًا أخيرًا لفكره وقلمه.

أما الرجل الثالث فكان الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي، صاحب الحظوة الواسعة لدى السلطان عبد الحميد الثاني، والذي تقدم في بلاط السلطنة

حتى غدا واحدًا من أبرز رجال النفوذ الديني والسياسي في عصره.

ولعل القارئ يدرك الآن لماذا اخترت لهذا المقال عنوانًا يبدو مستعارًا من حاضرنا. فالتاريخ مليء برجال دين اقتربوا من السلطة، كما عرف رجالًا قاوموها وآخرين نأوا بأنفسهم عنها. والتشابه في المواقع لا يقتضي التطابق في الأشخاص أو الأفعال. وما يعنيني هنا هو المساحة التي يدخل منها النفوذ الديني إلى السياسة، فتكتسب المواقف السياسية مسحة من القداسة، ويصبح الاعتراض عليها أقرب إلى الخروج على الدين منه إلى الاختلاف مع الحاكم.

في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، يضع أحمد أمين سيرة عبد الله النديم إلى جوار سيرة عبد الرحمن الكواكبي. وحين أعدت قراءة الفصلين، وجدت أبا الهدى الصيادي حاضرًا في كليهما حضورًا يصعب تجاوزه.

كان الصيادي شيخًا للطريقة الرفاعية، واسع الاتصالات، غزير التأليف، يجمع بين الخطاب

الديني وخدمة مشروع السلطان عبد الحميد في الجامعة الإسلامية. وقد بلغ من نفوذه أن صار مقصودًا من رجال الإدارة وأصحاب المصالح، حتى وصف أحمد أمين اتساع سلطانه بعبارات أقرب إلى الدهشة منها إلى التأريخ البارد.

لكن هذه الصورة لم تكن محل اتفاق بين معاصريه. فقد رأى أنصاره في قربه من السلطان خدمة للدين والدولة، بينما عدّه خصومه نموذجًا لامتزاج السلطة الدينية بالمصالح السياسية، واتهموه بتوظيف مكانته في الإضرار بمخالفيه.

ومن هؤلاء الخصوم كان النديم والكواكبي، ومعهما جمال الدين الأفغاني.

في حلب بدأت خصومة الكواكبي مع أبي الهدى من نزاع حول المكانة والنسب ونقابة الأشراف، التي ارتبطت تاريخيًا بأسرة الكواكبي، قبل أن يمتد نفوذ الصيادي إليها وإلى دوائر الإدارة العثمانية.

ويروي أحمد أمين أن الكواكبي رفض الإقرار بما ادعاه الصيادي من نسب، وأن الأخير سعى

إلى مضايقته، وأغرى به بعض رجال السلطة، حتى امتدت المضايقات إلى تجارته ومصادر رزقه.

وكانت محنة الكواكبي الكبرى مع والي حلب عارف باشا، الذي ارتبط اسمه باتهامه بالتآمر مع دولة أجنبية لتسليم حلب إليها، وهي تهمة كان يمكن أن تنتهي بإعدامه.

لم يستسلم الرجل، وسعى إلى نقل محاكمته إلى بيروت، بعيدًا عن نفوذ خصومه في حلب، فصدرت براءته.

هذه الواقعة ثابتة في المصادر التي تناولت سيرته.

وقد تركت تلك السنوات أثرًا عميقًا في تكوين الكواكبي. رأى كيف يمكن أن تُستعمل الوظيفة العامة في تصفية الحسابات، وأن يصبح الاتهام بديلًا من الدليل، وأن يتحول القضاء إلى ملاذ لا يُؤمَن إلا إذا ابتعد عن يد صاحب النفوذ.

ومن قلب تلك التجربة أخذت أفكاره عن الاستبداد تنضج.

وعلى الضفة الأخرى من السلطنة، وصل عبد الله النديم إلى الآستانة، يحمل تاريخًا من المطاردة والسجن المعنوي والمنفى.

كان الرجل الذي أشعل الحماسة في ميادين الثورة العرابية، وملأ صفحات «التنكيت والتبكيت» و«الطائف» و«الأستاذ» بالنقد والسخرية والإصلاح، قد أصبح مفتشًا للمطبوعات في عاصمة السلطنة.

مفارقة قاسية أن يعيش الرجل مدافعًا عن حرية الكلمة، ثم تضعه الأقدار في وظيفة تتصل بمراقبة الكلمات وحراستها.

وكان جمال الدين الأفغاني هناك أيضًا، قريبًا من السلطان ومختلفًا مع بعض رجال بلاطه، وفي مقدمتهم أبو الهدى الصيادي.

في تلك الأجواء اشتدت خصومة النديم مع الصيادي، حتى وضع النديم كتابًا حمل عنوانًا غريبًا لا تخطئ دلالته: «المسامير».

أعود إلى «المسامير» هذه المرة من زاوية لم أتوقف عندها طويلًا في الحلقات السابقة.

فالمعركة التي أراد النديم خوضها ضد أبي الهدى بدأت هجاءً لرجل نافذ، ثم كادت تتحول إلى قضية تمس السلطان نفسه.

كان الكتاب مؤلفًا من مقدمة وتسعة أقسام سماها النديم مسامير، وصاغه في أسلوب هجائي ساخر، يستعين بالسجع والحكاية والمبالغة والرموز الدينية والشعبية.

في مقدمته يقول:

«فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعم الشقاء بلاد الإسلام في هذا العصر».

ويحمل المسمار التاسع عنوانًا كاشفًا عن منهجه:

«في تفريق إبليس مجتمع الإسلام بدس الشبه والأوهام».

وفي صفحات الكتاب حوار متخيل مع إبليس، تتبدل فيه المواقع بين الشيطان ومن يُراد هجاؤهم من البشر، حتى يصبح الخيال الساخر وسيلة لكشف ما يعتقد النديم أنه فساد مستتر وراء الألقاب والعمائم والمظاهر.

كان النديم يستعمل سلاحًا عرفه المصريون جيدًا: السخرية التي تجرح الغرور، وتنتزع من صاحب النفوذ صورته المهيبة، وتعيده إنسانًا يجوز نقده ومحاسبته.

وقد تجاوز في هذا الكتاب حدود النقد المقبول إلى هجاء شخصي شديد القسوة، وهو ما انتقده أحمد أمين صراحة. ولا أرى تعارضًا بين تقدير شجاعة النديم ورفض بعض ألفاظه وأساليبه. فالدفاع عن حرية الكاتب لا يلزمنا بتزكية كل ما يكتبه.

لكن ما جرى للمخطوطة بعد ذلك يضيء جانبًا آخر من طبيعة الصراع.

يذكر أحمد أمين أن خبر الكتاب وصل إلى أبي الهدى الصيادي، فأبلغ السلطان عبد الحميد بأن المخطوطة لا تهجو الصيادي وحده، وإنما تتضمن هجاءً للسلطان شخصيًا.

وهكذا أصبح ما يكتبه رجل منفي ضد أحد رجال البلاط موضع بحث وملاحقة باسم مقام السلطان.

وهذه من أقدم الحيل السياسية وأكثرها تكرارًا: (حتى الآن) أن يرفع صاحب النفوذ خصومته الشخصية إلى مستوى أمن الدولة أو هيبة الحاكم، فيتحول غضبه إلى غضب رسمي، ويصبح الدفاع عن مكانته دفاعًا مزعومًا عن الدولة.

ولولا رجل اسمه جورج كرتشي، لربما انتهت حكاية الكتاب على نحو مختلف.

كان جورج، وفق رواية أحمد أمين، على اتصال بالنديم وجمال الدين الأفغاني، وتمكن من الاحتفاظ بالمخطوطة وإخفائها، ثم خرج بها إلى مصر، حيث طبعت بعد وفاة مؤلفها.

وقد توقفت عند هذه الواقعة في الحلقة الثامنة عشرة من هذه السلسلة، لكن العودة إليها هنا تكشف معنى آخر.

فبينما كان صاحب المخطوطة أسير منفاه، استطاعت أوراقه اجتياز الحدود. وبينما امتد نفوذ الصيادي إلى دوائر السلطنة، وجدت تلك الأوراق طريقًا إلى مطبعة مصرية بعيدة عن قبضته المباشرة.

ولا تذكر الرواية التي وصلتنا أن جورج كرتشي هو من أبلغ النديم شخصيًا بمضمون الوشاية، وإن كانت تثبت دوره في إخفاء الكتاب ونقله. وما زلت أتمنى أن أعثر على شهادة أقدم تكشف تفاصيل تلك الرحلة، ومن سلّمه المخطوطة، والطريق الذي سلكته قبل وصولها إلى مصر.

أما المؤكد في الرواية التي حفظها أحمد أمين، فهو أن رجلًا من خارج دائرة الصراع الديني والسياسي المباشر أنقذ أوراقًا كان أصحاب النفوذ يبحثون عنها.

وهذا الوجه من الحكاية يستحق أن يبقى حاضرًا في تاريخ التضامن بين أصحاب الكلمة، مهما اختلفت أديانهم أو أصولهم أو مواقعهم.

هنا يصبح الاقتراب من الكواكبي ضروريًا لفهم ما يتجاوز قصة «المسامير».

فالنديم تعامل مع أبي الهدى باعتباره شخصًا ينبغي كشف ممارساته، أما الكواكبي فجعل من تجربة الصراع مع أمثاله مدخلًا لفهم النظام الذي يسمح بظهورهم واتساع سلطانهم.

ومن ثم جاء «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، الذي صاغ الكواكبي مادته الأولى قبل رحيله عن حلب، ثم نشره في مصر، ليشرح كيف يمتد الاستبداد من السياسة إلى الدين والعلم والثروة والأخلاق والتربية.

كتب الكواكبي أن الاستبداد هو:

«صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء».

وأفاض في وصف علاقة المستبد بأهل العلم والدين، وكيف يستعين بعض الحكام بمن يمنح قراراتهم غطاءً دينيًا، ويجعل الطاعة لهم واجبًا لا يقبل المناقشة.

كان يرى أن من أخطر آثار الحكم المطلق إفساد الضمائر، حتى يصبح النفاق سياسة، والصمت حكمة، والتملق وفاء، ويصبح الصادق مزعجًا لأنه يقول ما لا يرغب الحاكم في سماعه.

وإذا كان النديم قد اختار المسمار ليصيب صورة صاحب النفوذ، فإن الكواكبي كان يفتش عن الأساسات التي يقوم عليها نفوذه.

وربما كان هذا الاختلاف أكثر ما شدني إلى الجمع بين الرجلين.

فكلاهما صحفي ومصلح، وكلاهما عرف المنفى والاضطهاد، وكلاهما رأى في فساد العلاقة بين الدين والسياسة خطرًا على المجتمع والدولة. غير أن النديم كان أميل إلى مخاطبة الناس بلغتهم وأمثالهم وسخريتهم، بينما استقر الكواكبي في وجدان النهضة باعتباره صاحب تحليل واسع لآليات الحكم الاستبدادي.

وثمة حقيقة تاريخية ينبغي أن تظل حاضرة في هذه المقارنة.

فالنديم توفي سنة 1896، بينما انتقل الكواكبي إلى مصر سنة 1899، وظهرت مؤلفاته الأشهر مطبوعة بعد رحيل النديم.

ومن ثم لا يصح القول إن النديم نقل أفكار «طبائع الاستبداد» إلى العامة، أو إنه استلهم الكتاب في صحافته.

لكن فكرة مقاومة الاستبداد لم تبدأ مع صدور كتاب الكواكبي. فقد كانت تيارًا حيًا يتغذى من

كتابات الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما، ومن الصحافة العربية الصاعدة والتجارب الدستورية وحركات الإصلاح في مصر والشام والدولة العثمانية.

وكان النديم من الذين أدخلوا هذه الأفكار إلى وجدان الجمهور المصري قبل أن تتخذ صورتها النظرية الناضجة في مؤلفات الكواكبي.

ولعل العلاقة الأصدق بينهما هي علاقة التقدم والتوازي في مدرسة إصلاحية واحدة، امتدت فيها التجربة الشعبية والصحفية المصرية إلى جانب التحليل السياسي والفكري الذي تبلور في حلب والقاهرة.

أما عن وجود لقاء مباشر بينهما، فلم أقف حتى الآن على وثيقة تثبته. وتظل صلتهما المشتركة بالأفغاني وبالصحافة الإصلاحية خيطًا للبحث، يحتاج إلى وثائق إضافية قبل أن يتحول إلى واقعة تاريخية معتمدة.

وقد عزمت أن أستفسر في هذا الأمر من صديقي الحبيب، الباحث والمفكر الدكتور سلام

الكواكبي، حفيد عبد الرحمن الكواكبي، الذي أعتز بصداقته وأقدّر حكمته ورؤيته الديمقراطية وخبرته الأكاديمية الواسعة.

فقد أدار المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في حلب، وعمل باحثًا في جامعة أمستردام، وتولى مسؤوليات بحثية بارزة في مبادرة الإصلاح العربي، وهو اليوم مدير المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في باريس.

ولسلام الكواكبي عناية خاصة بتراث جده، تجلت، بين أعمال أخرى، في كتابته مقدمة وخاتمة النسخة الفرنسية من «طبائع الاستبداد»، التي ترجمتها هالة قضماني، وصدرت عن دار «أكت سود» سنة 2016 بعنوان «Du despotisme et autres tex-tes».

ولعلي أجد لديه، بما يملكه من معرفة بتراث أسرته وخبرة بالمصادر الفرنسية والعربية، خيطًا غاب عني في علاقة هذين العملاقين، لقاءً أو مراسلةً أو معرفةً متبادلة.

فما زلت أبحث بجهد المقل، وأرجو أن تضيف صداقة الحاضر شيئًا جديدًا إلى ذاكرة الماضي.

وأعود إلى أبي الهدى الصيادي.

لقد رحل الرجل، ورحل السلطان عبد الحميد من بعده، وانطوت صفحات الدولة العثمانية نفسها، لكن القضية التي أثارها النديم والكواكبي بقيت في صميم حياة المجتمعات العربية.

فالدين، بما يحمله من قيم العدل والرحمة والحرية، يظل قوة أخلاقية عظيمة حين يستقل عن أهواء الحكم. أما إذا تحولت مكانة رجل الدين إلى مصدر حصانة سياسية، فقد تتعطل فضيلة النصيحة، ويتراجع حق الاعتراض، ويصبح الناس مطالبين باحترام موقع صاحبه بدلًا من محاسبة مواقفه.

ولا يعني هذا أن كل عالم قريب من السلطة تابع لها، أو أن معارضة السلطة وحدها تمنح صاحبها الفضيلة.

المعيار الحقيقي هو استقلال الرأي، ونزاهة الموقف، واحترام حق الناس في الاختلاف، وعدم تسخير الدين لتجريم الخصوم أو تبرئة الأخطاء.

لهذا أجد في تجربة النديم والكواكبي ما يستحق أن يُقرأ خارج أسماء الأشخاص وحدود العصور.

فالمؤسسات التي تفتقر إلى المحاسبة تفتح الطريق دائمًا لنفوذ لا يخضع للمساءلة، وقد يتحول بعض المحيطين بالحاكم إلى سلطة أكبر مما تمنحهم وظائفهم الرسمية.

بقيت مفارقة أخيرة تستوقفني وأنا أكتب هذه الحلقة.

مات النديم في إسطنبول، بعيدًا عن مصر التي أحبها وقاتل بقلمه من أجلها. وبعده بست سنوات مات الكواكبي في القاهرة، بعيدًا عن حلب التي نشأ فيها وعانى فيها كثيرًا.

كأن المدينتين تبادلتا ضيفين منفيين: أحدهما حمل مصر إلى البوسفور، والآخر حمل حلب إلى النيل.

لكن المفارقة الأشد مرارة أن الكواكبي نفسه مات في مصر؛ في البلد الذي كان عبد الله النديم يتمنى أن يموت فيه، والذي ظل حاضرًا في وجدانه بوصفه وطنه الأول وفضاء كفاحه وموضع أحلامه الأخيرة. مات الكواكبي في القاهرة، بينما ظل النديم، الذي أحب مصر وتمنى أن يدفن في ترابها، بعيدًا عنها حتى النفس الأخير.

وأنا أبحث بين وثائق إسطنبول ومقابرها عن أثر النديم، أزداد اقتناعًا بأن هذه الرحلة لا تتعلق بقبر مفقود وحده، وإنما بميراث فكري وإنساني تركه رجل عاش ومات وهو يدافع عن حق الإنسان في أن يرفع رأسه، وأن يقول رأيه، وأن يخالف أصحاب القوة دون أن يخشى بطشهم.

كان النديم رجلًا يصنع من الكلمات مسامير تؤلم أصحاب النفوذ. وكان الكواكبي رجلًا يشرح لنا لماذا يجد هؤلاء النفوذ طريقهم إلى رقاب الناس، وكيف يحتمي سلطانهم بالخوف والجهل والمصالح.

ولعل أجمل ما بقي من الرجلين أنهما لم يتركا لنا وصفة لاختيار حاكم عادل أو شيخ صالح، بقدر ما تركا دروسًا في ضرورة إقامة العدل على حقوق الناس وقوة القانون ورقابة الأمة.

فالحاكم العادل قد يرحل، والشيخ المستقل قد يغيب، والصحفي الشجاع قد يسكت صوته بالموت أو المنفى.

«أما الحرية التي يحميها القانون، ويحرسها الوعي، فلا ينبغي أن تبقى رهينة حياة رجل، أو فضيلة حاكم، أو شجاعة كاتب».

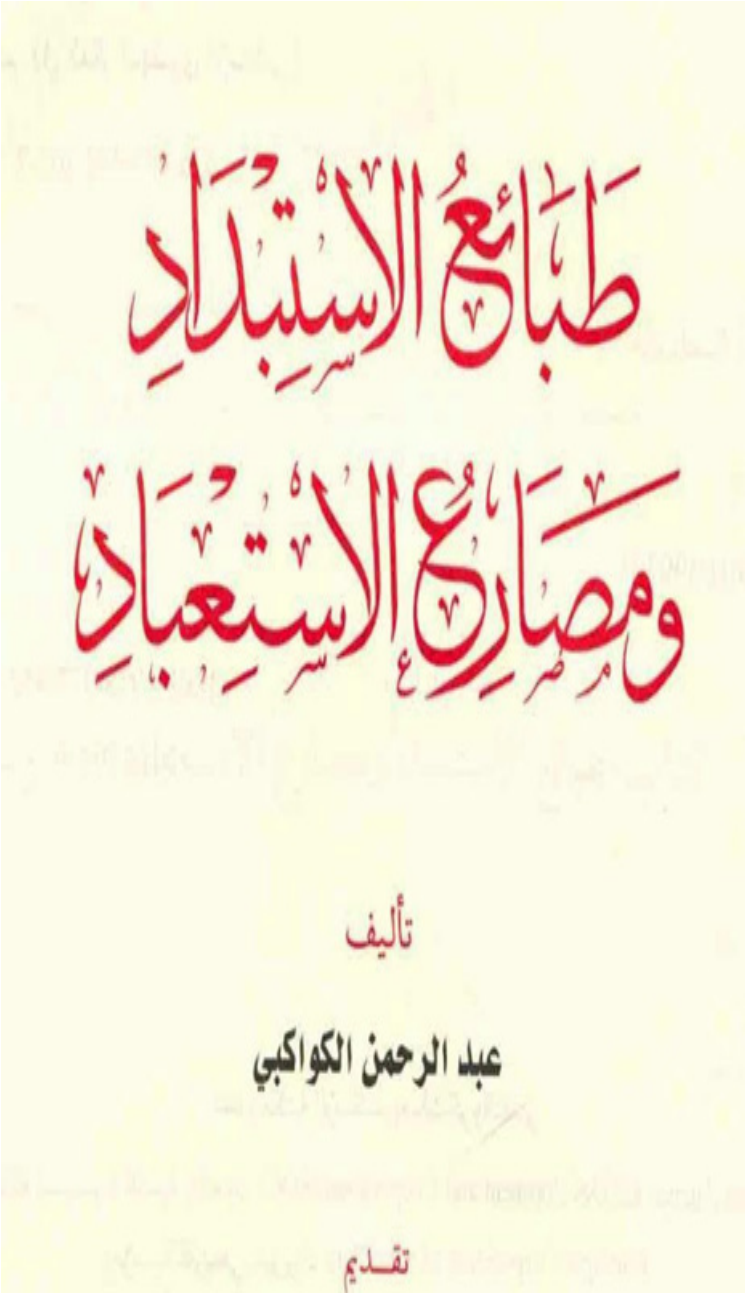
وربما لهذا لم أعد أرى «المسامير» مجرد كتاب هجاء قديم، ولا «طبائع الاستبداد» مجرد كتاب في فلسفة الحكم.

إنهما أثران مختلفان لمعركة طويلة لم تنته بانتهاء أصحابها.

فالنديم حاول أن يخلع المسمار الذي يثبت صورة المستبد على جدار الخوف، والكواكبي أراد أن يعلّمنا كيف نهدم الجدار دون أن نسقط تحته، أو نعيد بناءه بأيدينا.

وتلـك، فـي ظنـي، أصـدق صلـة تجمـع الرجليـن، وأهـم مـا ينبغـي أن يبقـى مـن معركتهمـا بعـد كل هـذه السنيـن.




طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد
تأليف
عبد الرحمن الكواكبي
تقديم



أنا والنديم من النيل إلى البوسفور... رحلة لم تنتهِ

(الحلقة الأخيرة)

كأنني أعرفه منذ العمر الأول.

لعلنا لا نبحث عمن غابوا، بقدر ما نتتبع في آثارهم طريقًا يعيد أرواحنا إلى نفسها.

منذ أكثر من عشرة أعوام، يرافقني عبد الله النديم. لا يطرق باب ذاكرتي ضيفًا، بل يدخل كمن يعرف البيت، ويعرف أين خبأتُ حنيني، وأين تركتُ ما لم أستطع قوله. أقرأ عنه، ثم أغلق الكتاب، فأجده قد بقي مفتوحًا في داخلي.

أذهب إلى مقبرة يحيى أفندي باحثًا عنه،

فأعود وفي يدي أسئلة تخصني أنا أيضًا.

ولطالما سألت نفسي:

لماذا هذا الرجل؟

فبين مصر والآستانة مئات من حكايات المنفيين، فلماذا اختار قلبي أن ينشغل بهذه الحكاية، وأن يجعل من قبر لا يعرف موضعه شاغلًا يتقدم على شواغل كثيرة؟

لم أجد الجواب في التاريخ وحده.

وجدته في شيء من حياتي.

بدأت الحكاية، ربما، من مدينة لا تكف عن إنجاب الغائبين وإبقائهم أبناءً لها: الإسكندرية.

ولد عبد الله بن مصباح النديم فيها سنة ألف وثمانمائة وخمس وأربعين، في عاشر ذي الحجة سنة ألف ومئتين وإحدى وستين للهجرة، على ما يورده بعض كتّاب سيرته.

وولدتُ فيها في الخامس من ديسمبر سنة ألف وتسعمئة وأربعة وستين.

...وبين الميلادين ما يزيد على قرن، وبين البحرين بحر واحد. لم نسمع الموجة نفسها،

لكنني أحب أن أتصور أن الموج كان يعرف سرّنا قبل أن نعرفه.

تعلق كلانا بهذه المدينة، لا لأنها أجمل المدن فحسب، بل لأنها تمنح أبناءها شيئًا من طبيعة البحر: سعةً تضيق أحيانًا، وحريةً لا تحتمل الأقفاص، وذاكرةً ترد الغائبين إلى أرصفتها مهما

طـال الرحيـل. لـم تكـن الإسـكندرية عنـدي عنـوان المـيلاد.

كانـت الأمكنـة التـي أعـود إليهـا ولـو تعـذرت العـودة؛ نسـيمًا ووجوهًـا وقبـورًا وأصواتًـا يعـرف القلب طريقهـا وإن عجـزت القـدم.

ثـم إن كلًا منـا ولـد مرتيـن. مـرةً يوم جـاء إلـى الدنيا، ومـرةً يـوم وجـد نفسـه فـي قلب ثـورة.

...كانـت ولادة النديـم الثانيـة فـي الثـورة العرابيـة، حيـن خـرج مـن حـدود الأديـب اللامـع إلـى اتسـاع الصـوت الـذي يوقـظ النـاس.

...وكانـت ولادتـي الثانيـة فـي ثـورة يناير، التـي لـم تمنحنـا حيـاة جديـدة كاملـة، لكنهـا جعلتنـا نـرى حياتنـا القديمـة بعيـون أخـرى.

ليسـت الثورتـان صـورةً مكـررة، ولا نحـن نسـختين مـن رجـل واحد؛

لكنهما تركتا في الروحين ندبة:

مـاذا يفعـل الإنسـان حيـن يلمـح وطنـه ممكنًـا، ثـم يشـاهد ذلـك الممكـن يبتعـد؟

عـرف النديـم مـرارة الهزيمـة، ثـم عـرف المطـاردة والتخفـي والقبـض والنفـي. وعرفـت أنـا السـجن قبـل ينايـر، وعرفـت بعـد تراجـع أحلامهـا وجوهًـا أخـرى من العزلـة والإبعـاد وطـول الانتظـار.

لـم تكـن سـنواتنا واحـدة، ولا أثماننـا متسـاوية، ولا أزعـم لنفسـي منزلـة الرجـل فـي عصـره. لكننـي أعـرف شيئًـا مـن وجـع مـن رأى بـاب الحريـة يُفتـح، ثـم وجـد وراءه أبوابًـا أخـرى موصـدة.

جمعتنـا كذلـك مهنـة تبـدو مـن بعيـد صناعـة حـروف، وهـي فـي الحقيقـة صناعـة حضـور.

لـم يكـن النديـم مجـرد صاحـب مقـال. أنشـأ مـن الكلمـة منبـرًا، ومـن الصحيفـة سـاحة، ومـن السـخرية نافـذة يتسـلل منهـا الضـوء إلـى بيـوت لا تصلهـا خطب القصـور. كانـت «التنكيـت والتبكيـت» و«الطائـف» و«الأسـتاذ» أكثـر مـن أوراق تُطبـع؛ كانـت محاولـة لأن يجـد النـاس لأنفسـهم صوتًـا.

وأنـا، بعـد الصحافـة والسياسـة، شـاركت فـي بنـاء منبـر تلفزيونـي مـن المنفـى. عرفـت أن الإعلام ليـس مـا يقولـه المذيـع أمـام الكاميـرا وحـده، بـل مـا

يحمله وراءه من بشر ومسؤوليات ومخاوف وأحلام. هناك ورق كان يهرب من يد الرقيب، وهنا صوت وصورة يعبران الحدود؛ اختلفت الوسائل، وبقي السؤال: كيف نُبقي نافذة للوطن مفتوحة، حين تضيق منافذه في الداخل؟

ولم يكن النديم ملاكًا من ورق. تثير سيرته أسئلة عن خصوماته الحادة، وعن وظيفة حمل اسم «مفتش المطبوعات»، وعن كلمات لا يصح أن نحبها جميعًا لمجرد أننا نحب صاحبها. وأنا لا أبحث عن توأم يبرئني، ولا عن قديس أعلقه في غرفتي. أحب فيه الإنسان الذي خاض امتحاناته متردداً أحيانًا، جريئًا كثيرًا، ومُثقلًا بما لا تسعه الشعارات.

ثم جاء المنفى، فاقتربت الصورتان على نحو أشد إيلامًا.

عبر النديم يافا ومدن الشام، وانتهت خطاه إلى الآستانة. وانتهت بي رحلتي إلى إسطنبول، المدينة نفسها التي تغير اسمها في أفواهنا وبقي بحرها قادرًا على حمل الشوق القديم. لكلينا في هذه

المدينة وجوه أحسنت استقبالنا، ومساحات من حرية وكرامة ما كنا لنستخف بهما. لكن حلاوة الأمان لا تمحو مرارة الغياب. يستطيع المنفي أن يشكر البيت الذي آواه، وأن يبكي في الوقت نفسه البيت الذي غادره. وليس في القلب تناقض حين يحب مكانًا ويشتاق إلى مكان آخر.

المنفى ليس أن تعيش بعيدًا عن وطنك فقط. هو أن يقع شيء جميل ولا تستطيع أن تطرقه على باب أمك؛ أن تنجح، ثم تكتشف أن أول رقم يريد إصبعك أن يطلبه صار خارج الخدمة إلى الأبد.

هنا، بالذات، يتقدم وجه أمي، فيصير التاريخ شديد القرب.

في إحدى أوراق مذكراتي، كتبت عن رغبتي في أن يكون قبري إلى جوار أمي في مدافن المنارة بالإسكندرية إن تيسر ذلك، وعن تفكيري، إن لم يتيسر، في موضع بإسطنبول قريب من مقبرة النديم وعبد الفتاح كيرة. يوم كتبت تلك السطور لم أكن أتوقع أن يصبح البحث عن موضع قبر النديم نفسه فصلًا طويلًا من حياتي. أي مفارقة أن

أفتش عن موضع راحة رجل، وقد فكرت ذات يوم في أن يكون قريبًا من راحتي الأخيرة!

كانت أمي قد رحلت سنة ألف وتسعمئة وأربع وتسعين. وبعد رحيلها بشهور، خرجت من مناقشة الدكتوراه في موسكو سنة ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين، وأسرعت إلى هاتف دولي لأزف إليها الخبر. أدرت القرص حتى قاربت أن أطلب رقمها، ثم تذكرت أنها رحلت. هناك، وليس عند قبرها، شعرت كأن الفقد وقع لتوه. فقدتُ يومها لا من يواسيني في الحزن فقط، بل من كان ينبغي أن يشاطرني الفرح.

أما أم النديم، فقد قطعت البحر تبحث عن ابنها المريض، ووصلت بعد أن سبقتها وفاته. لم تصل في الوقت الذي كانت فيه يده تنتظر يدها. وكم مرة وقفت أمام هذه الحكاية، أتخيل أمًا فاتتها لحظة الوداع، ثم أتذكر ابنًا فاتته لحظة البشرى. اختلف المشهدان، والتقى فيهما ذلك النقص الذي لا يعوضه الزمن: أن تغيب الأم عن اللحظة التي تكون في أمس الحاجة إليها.

لم أعد أرى النديم مجرد شخصية في كتاب. رأيت رجلًا سبقني إلى تجربة أعرف شيئًا من وجعها. رجلًا أراد أن يعود ولم يعد. انتظر أمه، فوصلت بعد غيابه. وترك أوراقًا لم تصل كلها إلى أهله. ثم مضى أكثر من قرن، وبقي القبر الذي نعرف مقبرته بغير عنوان محدد لنا.

ما أقسى أن يصبح وطن الإنسان ذكرى، ثم يصبح قبره نفسه ذكرى بلا عنوان.

لكنني أرفض أن تكون هذه هي النهاية.

لقد مرّت بنا في هذه السلسلة شواهد ووجوه لم تكن في أول الطريق. وقفنا أمام حجر اتضح أنه يحمل توقيع خطاط لا اسم الميت. قرأنا خبرًا عثمانيًا عن الوفاة. تتبعنا شهادة من عرفوا الجنازة، وشهادة أم لم تدرك الوداع. بحثنا في مراسلات الباحثين وقراءات الشواهد، وفي أوراق أحمد تيمور، ثم وجدنا صورتين منشورتين لنموذجين من رسالتين بخط النديم إلى الشيخ علي الليثي.

في كل مرة ظننت أن الطريق ينتهي، ظهرت ورقة تقول إن ثمة طريقًا آخر. ومع كل أثر تعلمت ألا

أدّعي ما لم أجده، وألا أجعل حبي للرجل يغلب حقه في الحقيقة. فالحب الذي يزوّر ليصل أسرع ليس حبًا، والوفاء لا يستعير من الوهم شهادة ميلاد.

بعض المصادر تؤرخ وفاته بالعاشر من أكتوبر سنة ألف وثمانمائة وستة وتسعين، وأخرى بالحادي عشر. وبين اليومين متسع لخلاف المؤرخين، لكنه أضيق بكثير من المسافة التي صنعها النسيان. لقد انقضى أكثر من سبعة وأربعين ألف يوم على رحيله. ولا أريد أن يستهلكنا الخلاف في يوم الوفاة حتى ننسى الواجب في الأيام التي تليه.

فالذكرى الحقيقية لا تقاس بما نقوله في يومها، بل بما نفعله في اليوم التالي. الاحتفال سهل؛ أما الوفاء، فهو أن يبدأ العمل عندما تنتهي الكلمات.

ويسألني بعضهم: لماذا كل هذا الانشغال برجل مات منذ مئة وثلاثين عامًا، بينما من حولنا حاضر يستغيث؟ وهل أعثر على قبره، فأكون قد أنجزت شيئًا؟ وهل إعادة رفاته، إن أمكنت قانونًا وإنسانيًا، تعيد إليه ما انتزعه المنفى من عمره؟

لا. عبد الله لن يعود إلى الدنيا، حتى لو أعدنا رفاته إلى وطنه. لكن هذه السلسلة ربما أعادت إلى الدنيا شيئًا من عبد الله. وربما كان هذا مبلغ ما أطمئن إليه.

ولا أعد العثور على الرفات غاية تتقدم على حرمة الميت وأهله، أو على مقتضى الدليل والقانون. إن أمكن أن نحدد القبر ونكرمه ونحفظه، فذلك وفاء. وإن أمكن يومًا أن نتداول أمر العودة على وجه لائق، فليكن. لكن عودة الفكر ليست معلقة على حركة تابوت، واستعادة الأوراق لا تنتظر إذنًا من الموت.

أن نبحث عن الجسد، وعن الكتب، وعن الرسائل، وعن الحقيقة التي ضاعت بين الأيدي. وأن نعيده إلى مصر إن أمكن جسدًا، وإليها فكرًا على أي حال. وحين يعود اسمه، أتمنى ألا يعود معه حجر وحده. أتمنى أن تعود ورقة، ومخطوطة، وكتاب، وصوت، وحقيقة جديدة؛ شيء مما كتبه في ليالي المنفى، ولم يتخيل أن أحدًا سيفتش عنه بعد أكثر من قرن.

لا أدري أين سأمضي أنا في بقية الطريق. أعرف فقط أنني لا أحب أن يتحول النفي إلى نبوءة نهائية، ولا أن يصبح الخوف من الموت بعيدًا عن الوطن سببًا في قبول حياة بلا كرامة. لقد كتبت من قبل عن رغبتي في أن أدفن جوار أمي، وعن اتساع أرض الله إن تعذر ذلك. واليوم أعلم أن أعمق ما نرجوه ليس أن تملكنا الأرض بعد الرحيل، بل ألا تخسرنا الذاكرة ونحن أحياء.

وكم تمنيت أن ألتقي النديم مرة واحدة، لا لأحدثه عن الثورة والسلاطين، بل لأمشي معه قليلًا على كورنيش الإسكندرية. نسكت حتى ينتهي الموج من كلامه، ثم أسأله: هل وجدت في الآستانة شيئًا يشبه بحرنا؟ هل سامحت الذين جعلوا العودة أمنية؟ وهل كنت، حين كتبت آخر رسالة، تعرف أن امرأة في مصر ستظل تبحث في دفاتر أبنائها عن حرف منك؟

لن يجيب. وربما كانت حيرتي هي الجواب الذي تركه لي.

تأخرنا كثيرًا يا نديم. لكننا لم نأتِ لنبحث عن عظامك فقط. جئنا نبحث عنك كلّك.

جئنا نبحث عن الرجل الذي كتب وضحك وغضب وأحب وخاصم، ووقف في الميدان ثم وقف وحيدًا أمام نافذة المنفى. جئنا نبحث عما ضاع من أوراقه، وعما بقي من حقه في وطنه، وعما لا يزال في داخلنا نحن من شجاعة لم تكتمل، ورجاء لم ينطفئ.

أعرف الآن لماذا لم يفارقني كل هذه السنوات.

لم أكن أمضي وحدي من النيل إلى البوسفور؛ كنت أمضي في طريق يعيدني، كلما ابتعدت، إلى أول مدينة أحببتها، وإلى أمي، وإلى الحلم الذي رأيته ذات يناير ممكنًا، وإلى المعنى الذي أريد ألا أفقده مهما طال المنفى.

ربما لا نصل غدًا إلى حجر قبره. لكننا نستطيع أن نمنع أن تضيع الطريق إلى روحه.

يا عبد الله، هذه آخر حلقات السلسلة المنتظمة، لا آخر الطريق. سيظل الباب مفتوحًا للباحثين، وللوثيقة التي لم تظهر بعد، وللحجر الذي لم ننتهِ

مـن قراءتـه، وللأمـل الـذي لا يملـك أحـد حـق إغلاقـه.

فقـد ذهبـت أبحـث عـن النديـم، ثـم وجدتنـي، فـي بعـض منعطفـات الرحلـة، أبحـث عـن نفسـي.

محكمه‌سی مدعی عمومیلكنه امر اولنمش اولدیغی كورنجه‌دن ازبار قلنمشدر .

كیدیلر وكلالر

— مأموریت مخصوصه ایله كریدا عزیمتیله دولمابغچه سرایی رفقای كرامی درمیانده عودت ودولتلی كون روسیه عزیمت ایتمشلردر .

— عثمانلی —جهانگیر خانم (قالوتا) نام تیاتو قومپانیسی ایله متوجها حركت ایتمشدر .

بوسفینه ایله دودان (موریله) یه قدر قوماندهٔ سنده‌در .

— یونی هراللد غزتهسنك برمحرری مجاری موسیو وقان شرق سرعت قطاریله اوروپایه كچمشدر .

وفیات

— مطبوعات داخلیه ادارهٔ عالیه‌سی مطبوعات عربیه مفتشی مشاهیرفضلادن سعید عبدالله ندیم افندی یرحمتی آیدینری مبتلا اولدیغی خسته‌لقدن رهایی اولهیه‌یدی ارتحال دارفنا ایتمشدر .

مرحوم عبدالله ندیم افندی عرفان مجسم وموجود نادرالوجود ایدی . بودائرهٔ زمانهنك شاهد فضل وكمال اولان « الاستاذ » و « اللطائف » غزتهلری سلطنت سنیهٔ خدائیه و ملت نجیبهٔ اسلامیه‌یه خدمات بموجوده‌سنك براعت امتلائی عد اولنه بیلور .

— موزهٔ همایون محافظی ده‌سعادتلو بطلیوس بك آقشی پاشانك ولدیغی حالده وكره وفات ایتش اولدیغی مسطوردر .

حوادث خارجیه

فرانسه : یوهنه طرفنده فرانسه حكومتی وخلقی روسیه چار وچاریچه‌سی حضرتلرینك پاریس زیارتلرینه مشغول اولمشلردر . على العموم فرانسه مطبوعاتی بو وسیله ایله روسیه وفرانسه اتفاقی تأ[illegible] تكرارایله مقالهلر نشر ایتدیلر .

[illegible] حضرتلری انكلتره‌دن دوغرا [illegible] چوب اوزاده رئیس حكومت موسیو فور جنابلری طرفندن استقبال اولندی [illegible] كلدیلر ، پارسك شایان تماشا [illegible] واقعی كزدیلر ، كوردیلر . [illegible] صلات زیارتی اوراق یومیه‌ده غزتهلرده حرر ایلمه‌دیكز جهتله عدم مساعده‌سی [illegible] نقل ایلیه‌میورز . بو مبالغه [illegible] ، ورسای قصریله اولان [illegible] واورایا تیاتروسنده وفرانسه تیاتروسنده وبریان ضیافتلری كال احتیمله یاد ایتمك لازمدر .

چار وچاریچه حضرتلری پارسدن شالونه عزیمت ایدرك اورادهٔ یوزیك فراسز عسكریندن رسم تجیدی سیر ایتدیلر ، طرفیندن غایت مصافاتكارانه لطفلر ایراد اولندی ، بعده قطار مخصوصله ماتیانه عزیمت ایلدیلر .

بوسیله ایله پارسه بر چوق میلیون ولایتلر اهالیسی واجنی زواری كلمشدی .

— لاتون غزتهسی محرر سیاسیسی رادیكال مبعوثاندن موسیو (فورنوده) داخلیه ناظری موسیو بارتوی اخلاص ایله اتهام ایتدیكی جهتله فوق‌العاده بر زوری هیئتی تشكیل قرار كیرمشدر .

— صربستان قرالیچه‌سی (نائلی) حضرتلری قیش موسمنی فرانسه‌ده امرار ایده‌جكدر .

— پرلس دوبابنك ازدواج قونطورانوسنك حین امضاسنده رئیس وكلا ماركی دی‌رودینی قرال حضرتلرینك نوتری وظیفه‌سنی ایفا ایتمشدر .

— پرلس یمارقك احوال صحیه‌سی كسب صلاح ایتمكده . مشار الیهك مقربانی برسوه تتیجه‌دن اندیشه‌ناك كدر .

— خارجیه ناظری موسیو هانوتو روسیه خارجیه نظارتی اموریه وكاله اداره ایتمكده بولنان موسیو شیشكین ایله بازاراپرتسی كونی اوكه‌دن صوكره بك اوزون برمدت ملاقات ایتدی .

— ۱۸۷۰ سنه سنده فرانسه ایله المانیا بینده وقوع بولان محاربه اثناسنده پارس شهرینی مدافعه‌یه مأمور اولان جنرال (تروشو) تك وفات ایتدیكی خبر ویریلیور .

رومانیا : كویا بحران وكلا ظهور ایده‌جكدن دائر نامه فرایه یوسه غزتهسنك ویردیكی حوادث قطعاً بی اصل واساسدر .

المانیا : چار وچاریچه حضرتلری دارمشتاده مواصلتله اثناسیونده عس غرالدوق وغرالدوه شتی ودوقلق عائلهسی اعضاسی جانبدن استقبال اولندیلر . اثناسیوندن صرایه قدر اولان كفرگاهده اهالی مشار الیهمای كال شوق وشادی ایله آلقشلادیلر . شهرك هر طرفی دوناتدر .

— دولت بالقدمی اسقونطوسنی یوزده بشه ابلاغ ایتدی .

— پروسیا دولتی استقراضاتك تحویلنه متعلق اولمق اوزره پارلمنتوبه برقانون لایحه‌سی تقدیم اولنه‌جغی تأمین ایدیلیور .

انكلتره : اودد روز بری انكلتره‌دهكی لیبرال فرقه‌سندن استعفا ایلمشدر .

— انكلتره بحرسفید فیلوسنه منسوب برسفینهٔ حربیه زنكباره كیتمك اوزره امر آلدی .

اوستریا : مجلس مبعوثانده بودجه‌نك مذاكره‌سی اثناسنده مالیه ناظری اوسترپا بودجه‌سنده آچیق كوردیكنه دائر اولان نشریات علیهنده بیانات كارانه بعض سوزلر سویلمشدر . یكی بودجه ضم اولنان یكری التی میلیون احتیاط اعتباریله قبادلمشدر . اوسترپاده تخصیصات وماتدات بودجه‌سی ایچون آچیق محتمل اولدیغی كبی بیان اولنمشدر . آچیق دخی كافی استعدادن برمیدر .

بورصه

سائم فرانق

٢٥	٩٢	غرق بور یولاری تحویلاتی
٠٠	٤١٨	تحویلات متنوعهٔ مجاریه
٠٠	٤٥٨	تحویلات متنوعهٔ كرتی

ایسترلین

٠٠	٦٣	ریجی تزیب مبدله
٠٠	٣١	لیكجی « «

ایرای عثمانی

١٠	١٢	باقی عثمانی حصه سندای
٢٨	٠٣	قمبیو واسهام « «
٣٢	٠٧	اعتبار عمومی « «
٠٠	٤٩٠	دویسعات تراموای شركتی

مسكوكات

٣٧	١٠٧
٠٦	١١٠
٢٠	٨٧
٢٠	٨٩
٠٧	٥١

سیر عجیدیه
انكلیز التونی
فرانسز التونی
پول
قرمبس

برگذار ماضی

ابن الجلال سنزائی بكك منظوم براثر شاعرانه .

سیدی، حیات انسانیهنك الك درین كوشه‌لرینی تخیلكر بر صورتده یازلمشدر . فیاتی ٢ غروش طشره‌یه ١٠٠ پاره‌در .

الخاتمة

حين يبقى الباب مواربًا

أصل إلى آخر هذا الكتاب، ولا أصل إلى نهاية الحكاية.

لا أملك صورة لشاهد أستطيع أن أضع تحته خطًا وأقول: هنا عبد الله النديم. أعرف المقبرة التي تذكرها المصادر، وأعرف أن رجالًا مشوا في جنازته، وأن أمه عرفت الطريق إلى قبره ذات يوم. أما موضع الحجر الذي نبحث عنه، فما زال خارج يقيننا. وفي ظني أن الاعتراف بهذه المسافة هو أول ما يستحقه الرجل من وفاء.

كان يسهل أن نصنع نهاية مريحة: قبر يظهر فجأة، ودمعة تنحدر، وصورة أخيرة يتفرق بعدها القراء. لكن التاريخ لا يلتزم بما يحتاجه الأدب من خاتمة. وقد تعلمت من الأحجار الملتبسة، ومن الرسائل الناقصة، ومن الأسماء التي عادت إلينا متفرقة، أن الأمانة قد تترك الباب مفتوحًا حيث ترغب العاطفة في إغلاقه.

لم تكن رحلة البحث عديمة الثمر. وجدنا مواضع لوثائق من زمن الوفاة، وعدنا إلى روايات الذين عرفوا النديم، وقرأنا آثارًا من خطه كما نُشرت بعد رحيله، وتواصلنا مع من أفنوا أعمارًا في قراءة شواهد إسطنبول. ولم نجد الدليل النهائي إلى القبر. والنتيجتان لا تتناقضان: قد يثمر البحث معرفةً جديدة، ويبقى سؤاله الأول قائمًا.

من الآن فصاعدًا، لا أريد أن تتحول هذه الرحلة إلى انتظار شاعر لحظة إلهام. لها واجبات محددة، أكثر تواضعًا وأكثر جدوى: مراجعة سجلات الدفن إن بقي منها ما يمكن الوصول إليه؛ مطابقة قراءات النقوش القديمة بصورها ومواضعها؛ تتبع أوراق الشيخ علي الليثي، ومجموعات أحمد تيمور والزركلي؛ قراءة النصوص العثمانية على يد أهلها؛ والبحث عما بقي من كتب النديم ورسائله ومخطوطاته في خزائن ربما تغير أصحابها وأسماؤها. وفي كل خطوة، نكتب ما أثبتناه وما عجزنا عن إثباته، فلا يتوارث الذين يأتون بعدنا حيرتنا كأنها حقيقة.

ثـم إن للرحلـة واجبًـا آخـر خـارج الأرشـيف. ألا نقـرأ تاريـخ النديـم بوصفـه قصـة رجـل نجـح أو أخفـق وانتهـى أمـره. أن نقـرأ فيـه سـؤال الكرامـة حيـن تضيـق السياسـة؛ وسـؤال الكلمـة حيـن تتحـول إلـى مخاطـرة؛ وسـؤال الاخـتلاف حيـن يعاقَـب صاحبـه بحرمانـه مـن العـودة. لـم يكـن الرجـل معصومًـا، ولا كانـت حياتـه قصيـدة متصلـة مـن البطولـة. لكنـه تـرك تجربـة تتيـح لنـا أن نحبـه دون أن نغلـق أعيننـا عـن تعقيدهـا.

وأعـود فـي النهايـة إلـى الأمهـات. إلـى أم النديـم التـي عبـرت البحـر متأخـرة عـن وداع ابنهـا، وإلـى أمـي التـي ظـل قبرهـا فـي الإسـكندرية أقـرب الأمكنـة إلـى قلبـي، وأبعدهـا عـن قدمـي فـي المنفـى. بيـن المرأتيـن قـرن كامـل، وبيـن الحكايتيـن ذلـك الفـراغ الـذي لا تملـؤه بلاغـة. حيـن يغيـب مـن نحـب، لا يعـود إلينـا كمـا كان. لكننـا نحـاول أن نحفـظ لـه المـكان الـذي يسـتحقه فـي العالـم، كأن الحفـظ صـورة ناقصـة مـن صـور اللقـاء.

إننـي أعلـم أن إعـادة الرفـات، إذا أمكـن يومًـا وكانـت لائقـة بحرمـة الراحـل وموافقـة لمـا يقتضيـه القانـون وحقـوق أسـرته، لـن تعيـد مـن عمـر النديـم

يومًا واحدًا. ولذلك لا ينبغي أن يكون القبر وحده مقياس نجاحنا. لم يعد عبد الله إلى الدنيا، لكن هذه الصفحات ربما أعادت إلى الدنيا شيئًا من عبد الله. وإذا فعلت، فقد أدت بعض ما رجوت لها.

وبعد كل هذه السنوات، لم أعد أفكر في المنفى باعتباره المسافة بين مدينتين فقط. ثمة منفى آخر تصنعه الذاكرة حين تقصي أحد أبنائها إلى الهامش. هذا المنفى لا يحتاج إلى سفينة تعبر البحر كي ينتهي؛ يحتاج إلى قارئ يفتح كتابًا، وباحث يقرأ وثيقة، ووطن لا يخشى أن يسمع سيرة من خالفوا سلطانه.

سأترك هذه الصفحات للقارئ، وأحتفظ لنفسي بحق العودة إلى المقبرة وإلى الأرشيف، بحق الخطأ الذي يصححه دليل، وبحق الأمل الذي لا يدعي أنه حقيقة. وإن جاء الغد بخبر جديد عن شاهد، أو مخطوطة، أو رسالة، فلن يكون ملحقًا بهذا الكتاب فقط، بل صفحة تستأنف بها الحكاية حياتها.

آخر الكتاب ليس آخر الرحلة.

وإذا سألتني، بعد إغلاق صفحته الأخيرة، ماذا وجدت من النديم، فسأقول: وجدت ما يكفي لأعرف أنني لم أجد كل شيء. ووجدت في الطريق إليه شيئًا من وجهي، ومن وجوه الذين أحببت، ومن مدينة لا يفارق بحرها من خرجوا منها.

أما عبد الله، فما زال أمامنا موعد مؤجل معه.

فهرس

الإهداء 5

المقدمة 7

وجوه لا تغيب... زعيم المنفيين... 12

النديم في ذكراه الـ130 27

رحلة البحث عن النديم في 2141 مقبرة 36

بيسان عدوان... وبيت شعر يبحث عن قبر 48

عندما يصافح التاريخُ الإبداعَ، تولد الحكايات 58

المنفى لم يكتفِ بالرجل، امتد لقبره وأوراقه 68

خبر غير سار... لكننا لن نيأس 87

أوراق المنفى عبد الله النديم 92

النديم في الوثائق العثمانية 95

آخر تمرد للنديم في الآستانة 105

علمتنـــي رحلتـــي وراء النديـــم أن التفاصيـــل
الصغيرة 116

البحث عن النديم 127

في المقابر فجر يوم الذكرى 130 136

النديم في إسطنبول 142

قيامة النديم 150
من النيل إلى البوسفور عبد الله النديم 161
أوراق النديم الهاربة من البوسفور للنيل 175
عثرت على خط يده، فهل نعثر على قبره 190
رحلة البحث عن النديم... من النيل للبوسفور 200
البحث عن عبد الله النديم..... 208
أنا والنديم من النيل إلى البوسفور 228
الخاتمة 242



الدكتور أيمن نور

مفكر ليبرالي وكاتب وبرلماني وسياسي مصري، وُلد في الإسكندرية في 5 ديسمبر 1964، وهو رئيس حزب غد الثورة الليبرالي المصري. حلّ ثانيًا بين عشرة مرشحين في أول انتخابات رئاسية تعددية في تاريخ مصر، وأقام في لبنان خلال عامي 2013 و2014، ويقيم في إسطنبول وبــاريس منذ عام 2015. وهو مالك ورئيس مجلس إدارة قناة الشرق الفضائية، كما أسس مركز الشرق الثقافي وجمعية الشرق للإعلام في إسطنبول. حمل القلم كما حمل الحلم، مصار أحد أصوات الحرية في العالم العربي، وخاض معارك الكلمة والسجن والمنفى، وظل مؤمنًا بالحكمة والاعتدال، وبأن الكلمة أعدل من السيف، وأن الوطن فكرة لا تُنفى. يكتب أوراقه كمن يكتب عمرًا على ضوء شمعة، بين حب ووجع، بين مصر التي أحبها والمنفى الذي لم يُبعد صوته. تُرجمت مؤلفاته وبرامجه إلى لغات عدة، وبقي صوته شاهدًا على زمن يعيد السؤال الأبدي: كيف نكون أحرارًا؟ وقد بيعت كتبه في معظم الدول العربية، ويقرأ صوته في قلوب عشاق الحرية أينما كانوا.

خرجت أبحث عن قبر عبد الله النديم في إسطنبول، فاكتشفت أن المنفى قد يخفي أكثر من حجر، وأن الأوراق أيضا قد تضيع كما تضيع العناوين. من الإسكندرية إلى يافا، ومن الثورة العرابية إلى مقبرة يحيى أفندي، تتبعت أثر رجل طاردته السلطات، ورافقته الكلمة، ثم غاب شاهده وبقي صوته. وفي الطريق، وجدت ما يصل سيرته بشيء من سيرتي: مدينة الميلاد، وحلم الثورة، وصناعة الإعلام، والسجن، والمنفى، وحنين لا تشفيه المسافات. ليس هذا كتابًا يعلن العثور على القبر، بل رحلة تبحث عن الإنسان وراء الأسطورة، وعن الأوراق وراء الغياب؛ لعلنا، ونحن نستعيد شيئا من النديم، نستعيد شيئا من أنفسنا.

9 781291 467710

TASQ

http://tasqpublishing.com
contact@tasqpublishing.com
tasqpublishing
+213784029344